الفتاة و الفرس



www.kotobarabia.com

ممدوح عبد الستار

الفتاة والفرس

قصــص

ممدوح عبد الستار

فهرس

إهداء

إلى أمي

شفيقة ـ الدلجمون ـ شلتوت

وإلى دنيا

ابنة صديقي يسري أبو العينين

بنت الرابعة عشر التي شبت عن الطوق، أصبحت

للكون بهجة ومعنى

وإلى إخوتي، وأبي ومحمد ماهر وأخته مريم

ممدوح

توطئة

النار تاج وأسمائي مدببة فهل حان الحريق

يا سلطة الوجد

حطّي بعض ما ملكت يميني في الفؤاد

أنا ما قبضتُ تذكّري

حتى بسطتُ حصير صحوي في بيت تنكر الموتى

تبخر من رفات الحي

أكوابا منمقة

كواعب من حجر.

زمن سيدي المراكبي

الهامش:

أطبقت على فمي بسرعة وهي ترتعش. نظـرت فـي عيني أمي، ثم ذرفت دمعتين وهي تتعوذ. حاولت أن أكتم ما بي، ثم طوحت يديها عن فمي بقوة. تأوهت. وخـزات فـي جسدي تحملني للاعتذار. تتألم وهي تدلك كتفها. تجذبني إليها باليد اليسرى. أرسم خطوطًا ملتوية على الحصير.. تتوجع. انحنيت، ودفنت رأسي في صدرها. ترفع رأسي ـ فأغوص في خجلي ـ وتعاتبني وهي تبعثر في "المندرة" كلمات غيـر مفهومة، قبلت يدها، فضمتني إلى صدرها. لم أحس بـدفء هذا الصدر مذ جاء هذا الطفل، ثم همست لها:

- أين من هـ...؟!

تضرب الهواء من حولي، حركاتها مبتورة لم أتعودها.

ضمتني وهي تغطي وجهي بجلبابها الأسود المتهالك.

- صغير.. ابعدوا عنه.

ثم غابت.

بحثت عن زجاجة العنبر، ثم وضعت على أنفها بصـلة كبيرة كسرتها بيدي. عمشت، ثم ضمتني وهي تتعـوذ. لـم أحس بدفء هذا الصدر مذ جاء هذا الطفل. الحياة والأشـياء ناقصة إلا من سؤالي، والحكاية التي ألمحها في عين أمـي، وعين الناس.

وضعت رأسي بين كلتا يدي. انتقلت بجواري، تمسـح رأسي تارة، وتضمني تارة، والسؤال يعلقنـا علـى بابـه. ما زالت أمي تلاطفني.

- هو ابن...

ثم تضرب الهواء بأذرعها الكثيرة التـي نبتـت مـن هاجسها.

تراقصت الأشياء من حولي. ريح الإجابة يفـوح مـن صدر أمي، وهي تضمني بشوق. ذرفتْ دمعتين وهي تتعوذ.

- اوعى تحكيها مرة ثانية.. فاهم.. اوعى يا طارق!!

نمت على حجرها، وهي تدغدغ جسدي بأناملها الخشنة، وهمسها الخافت جدا. وتفلت في عبها، وهي تحـدث نفسـها (يا رب اجعل كلامي خفيف عليهم).

- "التصق الخفير حماد بعكازه حاملاً بندقيته الخالية من البارود، ومشى بجوار البيوت الطينية، يقف أحيانًا، يرقب الطريق الخالي حتى يستطيع السير في برك الطين. الوحل في كل القرية حتى قدام عتبات الدور، والمطر الخفيف لم ينقطع بعد. راح الخفير حماد يسرع من خطواته - حتى انخلع حذاؤه أكثر من مرة - حتى وصل، واحتمى بحيطان سيدي المراكبي. الخفير حماد يجهد نفسه في تفقد الطريق الخالي حتى من نُبالة ضوء شحيح يدخل في نفسه الونس. سمع بكاء. ربما يكون مواء لقطة ضالة تبحث عن مكان أو طعام. يلف حول سيدي المراكبي. البكاء يحبو في شوارع نفسه، حتى خيل إليه أنه يبكي. لطم خده حتى أيقن أنه لا يبكي. ربما يكون طفلاً يتضور جوعا في إحدى البيوت القريبة. بص حوله جيدا. واعتقد أنه واهم، وهم أن يترك سيدي المراكبي. قبل أن يخطو في برك الطين حيث يكمل دورته، نسمة باردة محملة برذاذ المطر الخفيف جعلته يدفس يديه في جيوب البالطو الأصفر المتهالك.

البكاء ما زال يرن في قلبه الخافق والحـذِر. أرهـف السمع ليتأكد من مصدر الصوت، وأقعى على الأرض. فرح، وسيطر عليه الخوف، وألقى بندقيته وحذاءه المحمل بالوحـل والبالطو الأصفر المتهالك أمام عتبة سيدي المراكبـي. جثـا على ركبتيه وهو يتذكر البسملة. زحفه ببطء جعله يتذكر كل الحشرات التي سحقها - بجزمته البلاستيك - وتعقبها. كـل خبرته في الحياة والمواجهة لم تسعفه. فقط، كرشه هو الـذي تحمل جسده الثقيل بعدما اصطدم باللفة الصغيرة.

تحسس الخفير حماد الطفل بأناملـه المرتعشـة وقلبـه النابض بحكاية صغيرة لطفل. تمرغ الطفل على جنبيه، وكاد أن يعلو صوته لولا أن الخفير حمـاد أشـعل عـودا مـن الكبريت. رجع خطوتين وهو يهذي، وفر هاربـا - يخـبط على كل الأبواب المغلقة - حتى أنه نسي فردة حذائـه فـي برك الطين.

الخفير يشرب من نبض قلبه الراجـف. تعـوذ وخلـع البالطو الأصفر المتهالك وفردة حذائه وبندقيته الخاليـة مـن البارود. مثلما فعل الخفير حماد فعل العمدة وشيخ البلد. فزعا ورجعا خطوتين. تفل العمدة في عباءته، ومسك الخفير حماد

شيخ البلد يتعوذ. تناوب أهل القرية رؤية الطفل وهو يبكـي، ولا أحد يستطيع أن يقترب، أو يحمله، أو يرضعه الصـمت. صاحت مبروكة العجوز غاضبة، وهي تقترب ناحيته. كانت بين زمن الواقفين وزمنها. وبشيء من التهور قطعـت كـل المساحات المستترة في قلوب الجمع الواقف. عيون الواقفين مصلوبة على أقدامها المفرطحة. لم تهـتم مبروكـة، وهـي تخطو خطوتها الأخيرة نحو الطفل. حملته، ورفعته عاليـا، والتصقت به، وأخرجت ثديها الناشف. مصه الطفل فرحا..."

* * *

- ارجعي يا خالة مبروكة.. ارجعي.

قلتها بعلو صوتي يا طارق.

سألتني أمي.

- نمت يا طارق؟!

وهي تدغدغ جسدي النحيل بأناملها، دثرتنـي بجلبابهـا الأسمر المتهالك القديم، ثم قبلتني وهي تبكي، ودلفت متسللة خارج الدار.. حاملة وعاء اللبن الوحيد للعجوز مبروكة، ثـم طافت بسيدي المراكبي.

المتن:

هي ـ مبروكة ـ موزعة بين ليلها ونهارها. في ليلهـا تقفل باب حجرتها. تهب نفسها لطقطقة نار الموقد المتلونـة بلون صوتها المتغير من حالة لحالة. هي عارية من أنوثتهـا التي لم تعرفها قط. تخاطب مجهولين، وتناديهم.

كانت وهي صبية تحمل جسدا فاتنًا. كانـت تحـاول أن تلبس كل الأسماء. كل يوم لها اسم. كانت كـل الأسـماء لا تعجبها. فقط، ذاك الوجه وذلك الجسد. كـان الاسـم الـذي يعجبها هو اسمي، وكانت تدرك أن اسما واحدا لي ولها لـن يكون، وكانت تدرك أن صاحب الاسم له من اسمه نصـيب. كانت تريد اسما ليس له قدر.. فقط اسم، وكـان لابـد مـن إزاحتي.

لا لن أحكي ما جرى، فهي أختي على كل حال.

وكان لنومها حكاية، ولصحوها حكاية، وكنـت أمنـي نفسي دائما ـ مرة وحيدة على الأقل ـ بمشـاهدة جسـدها، وهو ممدود على الأرض أو فوق سـرير مـن الطـين أو الخشب. كنت أحاول جاهدة أن أستيقظ مرغمة فـي أوقـات

متفرقة أو أظل على حالتي أياما عدة.. لكنني ـ للأسـف ـ لم أشاهدها مطلقًا.

* * *

تقول خضرة أم طارق:

- يا خيبتك يا أم طارق. حرام عليك الواد. كنت احكي حكاية غيرها.

واطمت خدها مرتين.

- حرام تضيعي ابنك، وأنت شحتاه.

وسرحت مع أيامها.

* * *

- ولاد الهرمة رايحين زي كل يوم!!

- وراهم يا عامر.

تتلفت البنات، يمنحن اليمين نظرة والشمال نظرة.

هل كانت خطوات العيال ذكورة مبكرة، واختفاؤنا عنهم بداية المعرفة وسرنا؟!

- العيال ورانا يا مبروكة.

يلتصق العيال ـ بقدرة قـادر ـ بالجـدران الطينيـة والأبواب الواطئة.

كنا نجتمع بعد العصر، ننزف خراءنا مجتمعين يوميـا في جرن القرية الخالي، نشاهد عري نصفنا السفلي. كانـت هدومنا من الدمور، أو على الأكثر مـن الكسـتور. كانـت السراويل شحيحة ـ أين السراويل من ستر أشـيائنا؟! ـ ـ وكانت مبروكة تحبس نصفها السفلي بسروال بدكـة، وكنـا نتحسس أجسادنا بلهفة، وكانت فرحتنـا ممزوجـة ببـروز نهدين، أو شعيرات قليلة بأي جسد. ساعتها، تمنحنا مبروكة احتفالية.

تستعجل مبروكة أنوثتي دون غيري، وتتحسسني دومـا كل مرة.

- يا بنات، خضرة بقت واحدة ست.

الزغاريد ترن، وأشياؤنا معروضة لعين الشمس، وعين عامر والعيال.

يردح عامر بصوته الضعيف، ويظـل واقفًـا كاشـحا ملابسه، يروي أرض عمره بماء بوله.

- شايفك يا خضرة، وأنت يا عبده.

قرطاسان من التراب، وطوبة ناشفة على رأس عامر.

بكف مليء بالدم، وتراب على فروة الـرأس، يرجـع عامر لأمه.

- أصاك قليل الأدب.

- معاش يا أمه.. حرمت خلاص.

تنهدت خضرة. ومسـحت وجههـا بجلبابهـا الأسـمر المتهالك.

- الله يرحمك يا عامر.

وحين تبدأ مبروكة بإنزال سروالها، تكون عيوننا فخاخ منصوبة.

- يا متلومة أنت وهي.

وحده عامر يرقبنا، ومبروكة توزعنا على البائعين.

قالت نفيسة للجزار.

- عين أمي بتوجعها. هات حتة لحمة تحطهـا علـى عينها.

يعطيها قطعة لحم كبيرة.

- سلمي على أمك، وقولي لها عم محمد بيسلم عليك.

وأتت (جميلة) بحبات العدس والفول (وفوقية) بحبـات البطاطس، (وأفراح) بـالأرز والعـيش البتـاوي، وأخـرى بالحطب والماء، وكنت الوحيدة التي لـم تفعـل شـيئًا، أنـا عروس اليوم ولمدة سبعة أيام، وعملت مبروكـة الكـانون، ووضعت بداخله الحطب وأشعلته.

انتهينا من وليمة العرس. نادت مبروكة عامر. التصـق بي، وكان عرسنا الأول، والأغاني الطفولية تـرن بالجسـد المنتشي، والمنتمي لأنوثته ولأول مـرة بحـت الأصـوات، وانطلق صوت مبروكة.

- الدخلة يا عريس الغفلة.

وتوسدت ذراعه، وحضنني.

كان عامر يكبرني بخمس سنين. روحه سليمة وعفيـة، وجسده معلول. يتبعني وأنا أملأ الزلعة، وأنا أشطف ملابسنا على الموردة بجوار الصهريج القديم أمام الترعة. كان يراني في صحوه، وأراه في منامي. وكانت مبروكة تستبقيه ونحن نطبخ ـ ما الذي يقوله عامر، وبأي شيء تستبقيه كل هـذه المدة؟ ـ كان كشفي الأول والأخير.

مات عامر، وتركني أرملة، يؤنسني طارق وحكايته.

ما زالت خضرة تدغدغ جسد طارق النحيـل بأناملهـا، وتدثره بجلبابها الأسمر المتهالك القديم، ثم تقبله وهي تبكي، متسللة خارج الدار.. حاملة وعاء الابـن الوحيـد للعجـوز مبروكة، ثم تطوف بسيدي المراكبي دون كلل أو انقطاع.

* * *

يقول قمر الهطيل حلاق الناحية.

شالت الخالة مبروكة الطفل، ودارت به فـي السـكك، وعلى عينيك يا تاجر، تبرز ثديها، وتجلس في السكك.

- يتربى في عزك يا خالة!!
- هو فين عزها يا أخي؟!

يضحك البسطاء من الناس مشيرين للطفل الماسك ثدي مبروكة الناشف.

* * *

يقول بدوي عزوز الساكن عند الجميزة البعيدة، وإمـام المبعثرين في الحقول المروية بحكايات البشر.

- الابن مرجوع لأمه. سبحانه.

* * *

يقول قمر الهطيل:

دخلت ـ مبروكة ـ بيوت البسطاء من النـاس، ولـم تستقر. لكنها استقرت بعض الوقت عنـد أصـحاب العـز والطين، وتركت الطفل بين الرجل وزوجه. وكنـت أسـمع شجار الزوجين. حينها، تعود لتحمل الطفل، وتدخل بيتًا آخر من بيوت العز والطين قبل غروب الشمس، وفي آخر اليـوم الثالث من وجوده، جلست على عتبة دكاني. صرخ الطفل ـ فانكسرت مرآتي الوحيدة ـ فشقت مبروكة ثوبها من فتحـة صدرها حتى الذيل، وألقمته ثـديها ـ ـ والله العظـيم، والله العظيم شفت اللبن غطى وش الطفل ـ وهرولـت مبروكـة حتى دخلت مقام سيدي المراكبي، ولم يشاهد أحد هذا الطفل أبدا. فقط، مبروكة على عتبة المقام.

أعتقد يا ناس ـ والعهدة علي ـ أن الخالـة مبروكـة تعرف أم الطفل أو أباه. هو واحد من البلد على كل حال.

* * *

يقول بدوي عزوز:

هي ماشطة، تزوق البنات ليلة العرس، تنتف الزغـب الطالع، وتقرص الخدود، وتختلي بالبنت تعرفهـا بالرجـل.

تعيش على أفراح الناس وأحزانهم. ليس لها حزن، وليس لها فرح، فكيف يأتي الولد لمن لا حزن له أو فرح؟!

- حرام عليك تظلمها.

أعرف أنها تجلس مع ليلها الأسـود، تضـيء وجههـا المكرمش منذ زمن أعرفه. تضع البخور والشابة والفسـوخة على الجمرات المشتعلة. تخرم عيـون مـن تحـب، ومـن لا تحب.

ممسوسة هي. تخاطب مجهولين، فهل يأتي الولد مـن فكرتها أم من الجسد؟!

- للوجود سبب.. أي سبب يا بدوي.

* * *

يقول أحد المريدين لسيدي المراكبي.

- الولد امتداد حـي للشـيخ، وبركتـه، حـي. مـدد يا مراكبي.

* * *

يقول أحد الخبثاء:

مبروكة تبيع ما يفيض عن حاجتها من لبن وحبوب إلى تاجر من بلدة أخرى، وإن التاجر هو الذي اعترف له، شاهده مرة واحدة بين الليل والنهار، يسوق بضاعته علـى عربـة كارو يغطيها بقماشة كبيرة، ولمحه يستعطفها ويستبيح جسدها كله، وإنه يحصل على هذه الأشياء بقـروش قليلـة، وكـان يرتدي زعبوطًا يستر به كل الوجه إلا العينين، وكان يخلـع عن رقبة حماره ذلك الجرس الذي يؤنس مشيته.

- تعرفه؟!
- أجيبه من ألف راجل.

* * *

قبضت مبروكة على مدخل المقام. تأذن لبعض النسـوة بالدخول وتسر لها بما يجب فعله. ما بـين دخـول امـرأة وأخرى مسافة من زمن.. كافية للدعاء والبكاء والنشوة. كان الظلام يعم المقام ليلاً أو نهارا. الباب الوحيد ـ الجالسة عليه مبروكة ـ هو المنفذ الوحيد للضوء، تغلقه حين تـدخل أي امرأة. ما من امرأة إلا وقد دخلت المقام.

* * *

تقول الغازية التي أتت مهرولة تستنجد بربهـا طالبـة الخلفة. كانت متزوجة من عجوز ميسور الحال. مرت علـى حقول وبلاد وناس. ترتدي ملاءة لف، وتحت الملاءة بذلـة قديمة للرقص. يرن خلخالها مع خطو قلبها المفعم بالطلب.

بطرف البلد عند الجميزة البعيدة، كانت أم خلف تضـع لجاموستها الوحيدة بعض الحشائش، وتستعطف جاموسـتها وضرعها بالخير واللبن، وكانت الجاموسـة تشـرب دعـاء أم خلف وتوجعها. كانت متشحة بسواد، وعلى رأسها وداخل قلبها طيور المحبة والأمل.

لمحت أم خلف عيون الغازية الشاردة.

- غريبة يا أختي؟!

- أيوه، وطالبة العون.

- على عيني.

وبلت كل واحدة حلق الأخرى بماء الكلام الطيب.

- خير إن شاء الله.

خلعت الغازية ملاءتها أمام المقام، وباست عين الخالـة مبروكة، وألحت بالدخول لوقتها، وأفرغت جيوبها من القطع

المعدنية، وأمرتها الخالة مبروكة بخلـع الخلخـال والقـرط وفردة غويشة.

طافت مرات، وباست نحـاس المقـام، ورددت دعـاء أم خاف. بعدها، أغلقت الخالة مبروكة المقام، ومسكت الدف، ونقرته نقرا خفيفًا حتـى اسـتيقظ ماضـيها، وراح الجسـد المسلوب من وقته ينتشي من نقر الدف.

- كوني صافية. ملابسك تمنعك من الطلب.

استجابت لطلبها الذي أتت له من بعيد، وخلعـت عنهـا ما يمنعها. ومن باب صغير انحنت، ودخلـت قبـة المقـام الداخلي المكسو بالخضرة والمطرز بالذهب، وأغلقت ـ على نفسها ـ بابها. وجلست مبروكة أمام سيدي المراكبي.

اصطدمت الغازية ببعض الأواني، ولعقـت بعضـها، وتشممت بعضها، وأحست بأنفاس قريبة تلسعها، ويد قويـة تتحسسها. كتمت خوفها، وانزوت بركن، تزيح الأواني عـن جسدها بخفة. وكان تحت جلستها مباشـرة علبـة كبريـت، قبضت عليها وبسرعة أشعلت عودا. انطفأ بسرعة، ولمحتـه بهيئته.

مبروكة تحمل رأسها علـى وركهـا، تمسـح الوجـه المعروق بماء الورد، وتتحسس بأناملها العجوز ملامح الوجه المدور، وهامسة .

- استنى معايا. ونّسيني، وكل يوم لك نص النهار جوه.

وحين استعادت الغازية الرأس والجسد، سرقت أرجلهـا الخطوات، ونسيت ملاءتها اللاف.

عند الجميزة البعيدة، كانت أم خاف تشد بدايـة الليـل وجاموستها.

- عملت إيه يا أختي؟!

لم تبرح الغازيـة الجميـزة البعيـدة. وبـين صـوتها الجاموسة، وصوت الغازية تسعى أم خاف لسعيها، تسـكت صوت الحيوان مرة، وصوت الحكاية مرة أخرى.

في اليوم الثالث كان جسد الغازية مباحا للمارة، ودمهـا أيضا، ولم يسترها أحد.. غير أن أم خاف ولولت كثيرا.

- يا عين أمك!! غريبة وعن طلبها ماتت.

وغطتها بحشائش الجاموسة، وجلست بجانبها.

* * *

ثقلت الرأس على الجسد العجوز، ومالت تحضن أرض المقام.. غارقة في صمتها لأول مرة.

كان المطر لم ينقطـع بعـد، والـرذاذ الخفيـف جـدا والمتواصل قد خرم الحياة واسـتباحها، اسـتباح الأسـقف المعرشة وغير المعرشـة، وامـتلأت الأوانـي الفخاريـة والطسوت بالماء. كانت الثقوب تبلل الأجساد بأول الموت.

فتحوا قلوبهم المغلقة، ورحلوا لسيدي المراكبي. ربمـا يصيب الدعاء المطر، ويتوقف. وتركوا الإنسـان الصـغير يصنع مراكبه الورقية، والطير والحيوان فريسة للبقاء ولـو لمدة محدودة.

ماتت الخالة مبروكة، وكانت كما هي، متشحة بطرحـة بيضاء تخفي الرقبة الممتلئة، وجزءا من الشـعر الأبـيض المصبوغ بالحناء والمقصوص، يظهر جليـا علـى وجههـا المدور. كانت تتحلى بابتسامة هادئة، وبقـرط كبيـر جـدا منقوش برسمة غريبة: طيور جريحة وغربان ومخالب نسر ورأس حيوان مجهول وثعابين وأجساد صغيرة تحمي رأسها بالأيدي المنهوشة، وتدفس رأسها بالأرض.

كرمشة سنينها اختفت مع موتها.

قالوا

- ماتت عن مائة أو مائتين أو ثلاث.

وقالوا

- تدفن في قبر حياتها بعد صلاة العصر.

وقالوا

- بعد انهمـار المطـر المتواصـل، انقطـع الأذان. والمصلون والمؤذنون يحافظون الآن على الجسـد. لا على شيء آخر.

وقالوا بعد أن وقفوا مع صمت الموت:

- نغسلها.

رد البعض.

- المطر قد تكفل بهذا.

ودخلوا مقام سيدي المراكبي.

كانت البردة الخضراء ممزقة، والأعمدة النحاسية مرمية على الأرض، ولمحوا بعض الأواني وملاعق ووابور جـاز وعلبة كبريت فارغة ونصف شمعة.

دفنوها وقالوا:

- بعد انقطاع المطر صلح المقام.

* * *

يقول شطا البربري الذي ظل في مقام سيدي المراكبـي بعد دفن الخالة مبروكة.

قرط الخالة مبروكة كان بأذنها ساعة دخولنا عليها، وقد اختفى من تلقاء نفسه، وإن هذا القرط سيظهر مرة أخرى بعد مائة سنة.

ويقول سمعت: لن أموت ما دام نسلي لم يمت.

وكان قد انكمش، وارتعدت مفاصله وتهيأت أذنه.

(أيتها العجوز الغارقة في بحر محبتها. كنت كما كـان لك أن تكوني. عرفت السر، فخبأته في طلسم من صناعتك، وجزمت أن السر سينقل بدوره رغما عنك، فكفيـت نفسـك برقاب الناس الموتورين بمشيئتك. كنت المنشدة، وهم جوقتك الحزينة بنشيدك الأزلي. كنت في الحياة رغبة الحياة، وكنت في مماتك رغبة للتواصل، فهنيئًا لك بأرض الـدود وأرض الخلود).

وظل شطا البربري على مدخل المقام المهدم انتظـارا للبشارة.

* * *

تقول أم خاف:

رأيته يدور حول الجميزة البعيدة. ينبش الأرض. أخرج عظم الغازية. تشممه، وباسه، وضمه إلـى صـدره بلهفـة، وبللت دموعه عظم الغازية.

- أنت مخبولة يا أم خاف!!
- والله العظيم شفته.

كان شعر رأسه يصل إلى عورته. عار تماما. يكسـوه الشعر كفروه الخروف، وذقنه طويلة، وشـاربه. لـم يفعـل مقص الحلاق فعله ولو مرة واحدة. لم أر هيئة رجل مثلـه. طويل جدا، وعريض أيضا، كأنما هو من زمن قديم. وقفـت بجواره، ولم يحس بي.

في الليل وعز الظهر، رأيته مرات، وعلى نفس حالـه. أقسم أنه أعمى. لو رآني لغطى عورته بيديه.. لكنه لم يفعل (أنا ست برضك).

النسوة ذهبن إليه في الليل وعز الظهر، وكان ما كـان، حتى أن أم خلف قالت. (إن بعض النسوة الطالبات للخلفة قد رزقن بالولد بعد تسعة أشهر بالتمام والكمال).

تناقل الناس سيرته، وضربه بعض الرجال.. لكنه ظـل على حاله. وأنت النسوة تناديه بالولي العاري، ثـم اختفـى. وظلت النسوة يطفن حول الجميزة البعيدة. وأقسمت بعضهن: إن له أياما معدودة ينخرط في البكاء، وهو ممسـك بعظـام الغازية، وأقسم بعضهن: إنه كـان يطـوف حـول سـيدي المراكبي، يخرج عظام الخالة مبروكة وينخرط في البكاء.

زنفل.. الحاوي

الدية أو اليوم الأخير

جلس على أرضية الموكيت.. تاركًا كل الكراسي خالية منه. أنطق نفسه بنفسه. وقبل أن يسأل: كان قد أعلن نفســه بوضوح.

- (أنا زنفل الحــاوي، عريــف مجنــد ســابق رقــم ٤٧٠٦٩٩، المجند بتاريخ ٢٠/ ١/ ١٩٦١. وصلت ميناء الأدبية قادما من اليمن يــوم ١٥ يوليــو ٦٤. ونحن على ظهر البــاخرة، ســمعنا الميكروفــون: (الرئيس موجود بالميناء، وأول واحد من العائــدين يستطيع بمهارته أن يقابل سيادته. له جائزة).. قــام زملائي بإحضار الحبل الذي سوف يربط البــاخرة، بعدما وعدتهم بتقسيم الجائزة علينا جميعا بالتساوي. لف زملائي الحبل حول وسطي، وحملني تسعة منهم بصعوبة، وأسقطوني على رصيف الميناء. وعنــدما

خلّصت نفسي، توجهت إليه فاردا ذراعـي. أشـار بيديه، وقال:

- شد الحبل، وثبت المركب.

ففعلت، وكان يعد النازلين بنفسه، ويجعل كـل ثمانيـة يكونون حلقة، حتى لم يعد بشر على البـاخرة، ثـم دعـاهم للرقص. لم يرقصوا حتى وجدوه أول الراقصين، وكان يدخل كل حلقة.. يزينها برقصة جميلة حتى أعياهم رقصـه، ثـم جاءني، رقص معي وحدي، ولم أتعب، وتعب هو. سـاعتها فقط، سألني عن اسمي، فأجبت بفخر، وعلا المـلأ: زنفـل الحاوي.

قال:

- حط إيدك في جيبي الخلفي، وخـذ الطبنجـة ،فيهـا طلقتين، امشي اتفرس في الخلـق اللـي قاعـدين، حتلاقي جاسوس، هتعرفه من دمه، اضـربه طلقـة واحدة بس، وخلي الطلقة التانية لحراستي.

ارتعشت يدي في البداية. وقبل أن يفتح فمه ويـوبخني، كنت قد سحبتها ـ وهو في لحظة انفعاله ـ ولم يحس بـي إلا حينما توجهت نحو الجالسين. الكـل يـرتعش وخـاف،

يا رب لماذا كل هذا الخوف من المـوت، وهـل الخـائف جاسوس؟! كنت في حيص بيص، أنقذني الجاسوس، حينمـا جرى سريعا ناحية الباخرة، وحاول أن يهبش عمـره مـن اختفائه، ورصاصتي بين الحد الفاصل للموت، والحد الفاصل للحياة، سكنت رصاصتي قلبه الجبان، وسقط في الماء. قـال سيادته:

- دفن نفسه واغتسل بمائنا الطاهر غسله الأخير. هات الطبنجة يا زنفل.

تنفس سيادته بارتياح، بعدما وضع يديه الكـريمتين ـ خالص ـ على كتفي، وقال:

- أنت معندكش ظرطة واحدة من الخيانة، واحد غيرك كان ضربني بالطلقة التانية، ووقـف هـو مكـاني. علشان كده، أوعدك إن فيـه مشـروع اسـتثماري مشتركين فيه سوا إحنا العشرين.. رجـال الثـورة، وحنبدأ العمل فيه بإذن الله فـي الخطـة العشـرية الأولى، وسـوف تتـولى القـوات المسـلحة إدارة حساباتنا، بحيث يؤخذ عائد كل خطة بأصولها بعـد الانتهاء، لتدور في خطة أخرى، وهكذا دواليك. وأنا

أعتبرك من رجال الثـورة.. يعنـي أنـت الواحـد والعشرين، والك حق زينا بالضبط وأرسلني إلى بنك القاهرة، ومنحت رقم حساب.

صمت سيادته لحظة، وقد تشـابكت يديـه الكـريمتين خالص، ثم قال:

- أمامي ضربة جوية، وعاوز ولد خفيـف، وحِـرِك، ونبيه.. زيك كده في الضرب على الطاير.

وأفهمني أن مصر مضطرة ـ قرين إصرار إسـرائيل عدم منح الشعب الفلسطيني حقـه ـ للـدخول معهـا فـي مناوشات، وقد قمنا بدراسة هذه العملية، فوجدنا أنها لا يمكن أن تتم بجيش منظم.. أي بإعلان حرب على الملأ، وقررنـا لها عملية انتحارية، ويمكن ربنا يستر، والعواقـب تصـبح سليمة، إذا كان فيه سرعة في التنفيذ، وعلى أساس ما رأيت منك على الطبيعة، قلت (آخذ رأيـك فـي البيعـة الثالثـة)، وطمأنني بأنه سوف يثبت ذلك في يومية مصرية.. عمومية.. سرية، وتحفظ مع الأسرار الحربية، وتكون مغلفـة داخـل أسطوانة صفيح أو صاج.. خشية تلفها من الحريق أو الماء، وتحددت دية قدرها خمسة وعشرون ألف جنيـه مصـري،

تدفع لأسرتي عند سماعهم استشهادي، أو لـي أنـا زنفـل الحاوي إن كتب لنا الله النجاة.

وعرفني ـ رحمه الله ـ أنه قرين هذا العمـل سـوف يأمر بانسحاب قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ، حتى تكون سيناء خالية تماما من البني آدم، وسوف نترك المجال للعدو كي يحارب، وينتصر نصرا واهيا، لم نكن له ـ نحن ـ بالمرصاد، حتى يتم سحب جيشنا من اليمن، لنعيد الكـرة عليهم، وإن الحرب سجال.

وقال سيادته:

- وإن مت قبلك يا زنفل، سوف أترك بالوصية للـذي يليني في الحكم: أن يستشيروك في إعداد المعركـة القادمة، وسوف تجود بالمعلومة الكافية التي سـوف تمكنهم من النصر بإذن الله، ولكي تـدخل المعركـة بأعصاب هادئة، سوف أسـتدعيك للاحتيـاط بعـد تسريحك، وسوف تفاجأ بمكان ووقت التنفيذ. وإن الله على نصركم لقدير. وإن سألوك في الإعداد، كان لك مثل الدية، لأن كل فعل، له رد فعل، مضاد له فـي الاتجاه، ومواز له في المقدار. وسـوف أقـوم الآن

بإعداد الدية للشهيد، باعتبار ما سوف يكـون، ثـم أعكس قيمتها على القوات المسلحة للتنمية.

وقد قام ـ رحمه الله ـ باستدعاء الرئيس الأسبق، إذ أن لديه قوة في قراءة الطالع، والنازل. واستدعى محمـد علـي كلاي حتى أراه، وأسلم عليه، وجعل أم كلثوم تغني لي، وله فقط. وكلف أحد الأشـخاص ـ لا أذكـر اسـمه ـ يعمـل أسانسير مائيا يصل إلى قاع النيل، حتى أرى نـور الله فـي القاع، وتنجلي عيني بنور الحقيقة.

* * *

وفي أول يونيو ٦٧، كان استدعائي الثاني، وذهبت أنـا وحوالي سبعة عشر فردا من زملائي إلى المطار. صـعدنا الطائرة، وجلسنا، والكل ربط الحزام. قال قائد الطائرة.

- اللي عاوز يولع سيجارة يولع.

أشعلت سيجارتي الأخيرة. وأثناء السير، فوجئت بقطار بضاعة تسير الطائرة بجواره ببطء شديد. نادى قائد الطائرة.

- مفيش راجل يا أولاد....

نهضت من مكاني، وقلت:

- أنا راجل ابن راجل.

قال:

- تقدر تعمل حاجة.

وأمرته أن يثبت الطائرة، وفتحت الشباك، وناديت علي زملائي: انتباه.. نص للشمال مل، نص لليمين مل. ثم بدأت بإلقاء القنابل اليدوية من الشباك بالمناولة. ولما انتهيت مـن رمي القنابل الموجودة قلت:

- مفيش حماية للطيارة.

قال لي، وأسنانه تتوحد مع الرمال في لونها الأصفر.

- اطلع من مكانك، امشي ثلاث خطوات، حتلاقي ثلاث درجات ـ سلم صغير يعني ـ انـزلهم واطلعهـم، حتلاقي اللي انت عاوزه.

نزلت، وطلعت، ثم أصبحت في الجناح، ووجدت مدفعا رشاشا. وفي هذه الأثناء دوى صوت صفارة إنذار، ورأيـت شيئًا عظيما فوقنا، وقلتُ:

- يا أفندم، فيه فوقنا حاجة كبيرة قوي.

قال:

- باين منها إيه؟!

قلت:

- التنك.

قال:

- مستني إيه!!

جلست مكاني. ورفعت الماسورة لفوق، وضربت، ثـم صرخت بأعلى صوت.

- الله!! التنك ولع.

قال:

- تعال هنا جنبي.

تنهدت، وصمت لحظة. قال لي:

- مالك؟!

قلت:

- عاوز أتبول.

وبعد أن عملت كما يعمل الناس، وجدته ينظرني بفخـر ونظره متصلب لنقطة معينة.

وقبل أن نصل إلى شرم الشيخ، أخذنا مطبا في الهواء، وحينما داس الطيار على زر السرعة، دست أنـا علـى زر الاتجاه يمين، ثم قال:

- أعرفك بنفسي:
- أنا....

قال لي اسمه لكني نسيته ـ متخرج ملازم أول، والعمل اللي احنا قمنا به.. لا يقل أهميـة عـن ثـورة جمـال عبد الناصر، وإذا رجعت بالسلامة، مش حسيب حقـي. وانت مش حتبقى راجل في نظري، إلا إذا أخذت حقك. بس مش علشان باقولك كده، تعمل مقطـوع ومسـكين، وتمسك لي فردة جزمة، وتضرب الرايح والجاي. لأ. خذ حقك بطريقة الناس ترضى عنها. ولما تحـب تفكرنـي بالعملية دي. تفكرني إزاي؟!

قلت له:

- الطيارة دي اسمها إيه؟!

قال:

- اليوشن، وناس بتقول عليها اليك.

قلت له:

- هاقول لك، الهشك.. البيشك.. اليك يا عبد الصمد..

ونزلت شرم الشيخ، وحضنتني الكتيبة، ثم نشبت حرب ٥ يونيو، وانسحب اللواء الرابع من شرم الشـيخ، وعشـت معارك رأس العش وبور فؤاد وحريق السـويس، إلـى أن تسرحت.

* * *

في عام ٧٢، ورد لمركز التدريب الراقي بالدراسـة.. من مصلحة التدريب بالعباسية كتاب رئاسة الجمهورية، وهذا نصه:

بناء على وصـايا الـرئيس الراحـل، يؤخـذ بـرأي العريف/ زنفل الحاوي، في حالة ما إذا كانت مصر تنـوي الدخول في معركة هجومية مع العدو.

قلت:

- يجب أن يفقد العدو توازنه.

- إزاي يا زنفل؟!

- بتغيير تكنولوجيا الحرب التكتيكية.

ثم اقترحت ضرب خط بارليف الترابي بماكينات المياه التي اشتراها الجيش من عمر أفندي، وبعد تقديم خدعة كتابنا للسيد الرئيس الأمريكي السابق، نصها الآتي:

"السيد رئيس الولايـات المتحـدة الأمريكيـة.. لنـدن نيكسون، نرجو التكرم بإخطار إسرائيل بعمل مهادنة بينهـا وبين مصر لمدة ثلاث سنوات، حيث إن مصـلحة البوسـتة مغلقة اليوم وغدا، وحالها لا يسر، وحتى يمكن إعـادة بنـاء مدن القناة، حيث إن القاهرة قد اكتظت بالسكان.

لذا نرجو التفضل بالإحاطة والمساعدة بعمل ما يرضي ضمير سيادتكم لمساندتي، ورجوع حقي، حتى يمكـن بنـاء جيل قادر في ظل الغلاء المدمر للمال البسيط.. المتمثل فـي شهرية قدرها ١٠٢ جنيه.

ولو عندي دموع، أنا كنت بكيت!!".

* * *

وقف يبرم شاربه الطويل، ويهرش شعر صدغه النابت قليلاً، وبدأ يسوي هندامه الفوقاني.. تاركًـا التحتـاني كمـا هو - لكنه لم يتعثر، يرفع بنطاله لأعلى - وماسكًا عصـا المرشال، والتي بها رسوم متداخلة.. الظاهرة منها فقط رأس

الحية، ثم عدل النياشين التي على صـدره، وبـدأ يمسـحها ويبكي، ثم رفع رأسه إلى سقف الحجرة.. آخذًا نفسا عميقًـا من هواء التكييف، ثم قال:

- وقد قام الرئيس الراحل أنور السـادات، والـرئيس الليبي معمر القذافي، والـرئيس جعفـر النميـري، والسيد نائب الرئيس حسـين الشـافعي بالاتصـال تليفونيا بي من مكتب السيد/ قائد مركـز التـدريب الراقي بالدراسة، وقدموا الشكر، وطلب الدعاء بـأن يكلل الجهود بالنصر، وها نحن بعد النصر، وعـايز الدية.

الأمنية أو اليوم الأول

سمعت ضاوية آذان المغرب. فمسحت عن نفسها تعـب النهار، وعراك أطفالها، وتهيـأت لليلهـا، بعـدما غسـلت المواعين. وقلبها بماء دافئ وصـابون، وحبكـت جلبابهـا، واطمأنت على مؤخرتها، وعـدلت مـن وضـع صـدرها، وسارت بتؤدة، حتى جلست بجانبه على حافة السرير النحاس بلطف. رفعت الناموسية وقالت:

- بسم الله.. ما شاء الله.

وانحنت على جبهتـه المسـتطيلة. أنفاسـها الملتهبـة، ووجنتيها المشتعلتين بحمرة الوله، يسحبان الجسد المـرتعش ببداياته للذة الغياب ونشوة الوجود. فتح عبد الواحـد عينيـه لأول طقوسها، وتركتها لقبلتها الطويلة.. غارقـة فـي ليلـة أخرى يجاوبها جسدا بجسد.

رفعت الغطاء عنه رويدا.. رويدا، بعدما أيقنت أن ليلتها لم تأت بعد، بسملت واستعاذت، ووضعت الكف اللين علـى صدره. نتفت شعرة من صدره العاري. كل يـوم لهـا مـن صدره شعرة. ارتعدت أطرافه، وتـذكر أول ليلـة معهـا،

وتعجب أن صدره ما زال يكسوه الشعر. مسـحت بيـديها، وبزيت أنفاسها كل الجسد. اطمأن ليدها الحانية ونظر إليهـا مبتسما، وشاكرا، وهي تصنع من جسده الذي شارف علـى الخمسين أسطورة.

عبد الواحد يتعجب من مداعبتها له كل ليلة فـي هـذا الوقت وكم من المرات سألها عن سر رغبتها له فـي هـذا الوقت. فقط؛ تغمض عينيها، وتسرح مع آخر شعاع للشـفق. كان في البداية يجاوبها جسدا بجسد. ولما استعصـى عليـه الفهم، استعصى جسده أيضا عليها، هي أيضا لا تعرف سـر الوله بذلك الوقت. هي فقط مسحوبة ومسجونة لتلك اللحظة.

* * *

كان يرى رغبة أمه - التي يتعجب منها ولا يعرفها - وتحققها. ساعتها: كان يركب مهرة الفرح - حينمـا يـرى طقس أمه اليومي - تاركًا حذاءه، ماشيا على أطرافه، نـاقلاً خطواته خارج حدود والده ببطء. لا صوت الآن غير صوت الأمنية.

* * *

قال عبد الواحد:

- افتحي الراديو.

قامت ضاوية ببطء ناحية الشفنيرة، وأحكمت الجلبـاب، وقبضت على وسعه، فبانت مؤخرتها كاملة، وناضجة، يشي جسدها بزمنه.

- يا واد يا زنفل.

زمن مقطوع بين نداء أبيـه، ونـداء نفسـه المفعمـة بالهرب. تذكر آخر مرة عندما تحول عبد الواحد إلى لاعـب سيرك قديم.. يجيد اللعب بالعصا على جسده الصغير.

- أيوه يا بابا.

وكان شاعر الربابة قد بدأ سيرة بطله الشعبي الذي نفخ فيه من روحه.

- بينا يا زنفل.

- استنى شوية يا بابا.

- بلاش لكاعة... بلا ربابة، بلا سخام.

* * *

هذا الولد ملك لأبيـه وأصـحابه وباشـكاتب المكتـب وسعاته.. من صلاة المغرب إلى ما بعد العشاء بكثير.

قال عبد العزيز شعبان، شريك عبد الواحد بمكتب النقل:

- هو ميدالية يا عبد الواحد؟!
- بخـاف عليـه.. وبعـدين دا سـتري، ورزقـي يا عبد العزيز.

هش عبد الفتاح أبو شنب.. باشكاتب المكتب النوم مـن جفن الولد.

في طريق العودة للبيت؛ سحب زنفل يده من كف أبيه، وبسط نظره على الكون الواسع.

- واقف ليه؟!
- يعني إيه حركة الضباط الأحرار يا بابا؟!

ارتسمت في عين عبد الواحد نظـرة مكللـة بمصـائر البشر. هي نظرة، لا تعي نفسها فقط.. لكنها واقفة في بحـر دهشتها.

- سمعت الكلمة دي فين؟!
- في الراديو بتاعنا.

سحبه صامتًا.. معلقًا كالإجابة. وعلى عتبة المنزل كرر زنفل السؤال، وأقبلت ضاوية ببشاشتها كالعادة.

- لما نتعشى يا زنفل.

يتعشى عبد الواحد مرتين.. مرة بالمكتب، ومرة بالبيت.

جلس زنفل، والتصق بجسد عبد الواحد. وضاوية تضع طبيخها على الطبلية.

- دول يا سيدي شوية ضباط. زملا مع بعضـهم فـي الجيش، مش عاجبهم حال الملك، فلموا بعضهم مـع عساكرهم، وعملوا حركة كدة، وشالوا الملك.

- وليه مكانش عاجبهم حال الملك؟! دا ملك يا بابـا.. ملك!!

- كان مش واخد باله من الجيش، ومن البلد، وبيسـكر كتير، وأرسل الجيش علشان يحارب في فلسـطين. فيه ناس بتقول: من غير سلاح كفاية، وناس بتقول: بأسلحة فاسدة.

- وفلسطين دي إيه يا بابا؟!

- دولة عربية ومسلمة.. زينا بالضبط، وجارتنا.

- وليه كان فيها حرب؟!

- علشان اليهود ـ لعنة الله عليهم ـ خدوها من أهلها المسلمين، وعملوها دولة لهم بالعافية، وكنا عـايزين نرجعها تاني لأصحابها.

- طب وإحنا مالنا؟!

- يا ابني اليهود ناس طماعين، ومـش علـى دينـا، وأصحابها ناس زينا كده، ومسلمين.. لكن يا خسارة، اتغلبنا.

لم ينم زنفل ليلتها، وقال لنفسه: (يبقى أحسن اللي عملوه الضباط الأحرار).

صباحا، وقف زنفل أمام خطوات عبد الواحد السائر إلى الحمام.. واضعا سؤاله قبل إبريق ضاوية، ومـن الإبريـق تصب ضاوية الماء والدعاء والمداعبة، مسح عبـد الواحـد وجهه بالمنشفة، التقطها زنفل، وسريعا وضعها على حافـة السرير، وعاد بسؤاله، ووضعه على الطبلية قبل أن تضـع ضاوية طعامها.

- مين هو محمد نجيب؟!

- ياه!! أنت لسه فاكر؟!

وابتسم.

- ضابط مصري يا سـيدي. شـجاع. حـارب فـي فلسطين. وانطخ ثلاث رصاصات. وهو الكبير بتاع الضباط الأحرار. وعلى فكرة هو بلدياتنا.. من بلـد فلاحين زي بلدنا اسمها النحارية.

شعر زنفل بارتياح، وقال لنفسه: (الحركة دي بتاعتنـا إحنا هنا في كفر الزيات).

* * *

- يعيش الضباط الأحرار.. يحيا محمد نجيب.

قال زنفل ذلك مصفقًا بيديه الصغيرتين لوالده الذي فـي لحظة مفاجئة أمره بالسكوت. وعندما وصل البيت. اسـتقبلته ضاوية، رافعة بذلة الضابط الصغير.. تلك الأمنية التي لـم تفارقه منذ أيام.

نصف يوم

تصدرت صورته كلا لجرائد، فعرف النـاس هنـا ـ بالصدفة ـ إنه ابن النحارية.

سيمر الديزل اليوم، وسيأمر سائق القطـار بـالتوقف. إشاعة كالهواء والخضرة، لماذا يصدقها الناس هنا؟ لا أحـد يعرف. غير أنه سوف يجيء، وسوف يقابـل عمـك عبـد الواحد، الذي ارتـدى أفخـر ثيابـه، وتعطـر لأول مـرة، وسيصافحه يدا بيد.. وسيعزمه على الغداء أو العشاء.

وحين يقف القطار، سيطل بوجهه البشوش من النافـذة، وسيتذكر بداياته مع ناسه، وخروجه من قريتـه التـي بهـا منتهاه. هو سيدرك ذلك. وسيتذكر أصـحابه الـذين سـكنوا صدره، وسيتذكر رحلته معهم إلى الإنكلستوما والبلهارسـيا التي اخترقت جسده النحيل، وسيقابل الحشود الواقفة لتحيته، هو لن يخطب فيهم. هو راض بهم. وهم أيضا.

* * *

قبل يومين، صعد الشيخ مسعود المنبر ـ قبـل صـلاة المغرب ـ ملوحا بجريدة يتأبطها.

- يا ناسي وأهلي، أنا ورئيس الجمهورية عشنا سوى.. فترة من الزمن، بين تعلم القراءة بكُتاب والـدي ـ رحمه الله عليه ـ وبين الأنكلستوما.
- يلعن أبوك يا شيخ مسعود.. انزل خيبة الله عليك!!
- وما لنا والرئيس؟!
- حتى الأستاذ دياب ـ قياس البلد ـ قال نفس الكلام، أنا ورئيس الجمهورية أصحاب.
- مرض بعيد عنك.. لطفك يا الله!!

كيف للبسطاء أن يأمنوا للشيخ بعد ذلك، بعدما تأكد لهم جنونه؟! فصلوا فرادى.

يوم الجمعة، أثنى الشيخ مسعود على الرسول الأمـي، بعد الثناء والحمد للمولى سبحانه.

- أخذ الله القدير طينة محمد نجيب.

لماذا يذكر محمد نجيب الآن، بعدما انقطعـت أخبـاره عنا؟!

- من قريتنا المباركة هذه، وصورها بالكينونة، وتركها لشمسنا وهواءنا، وأصابع رجالنا، وأثـداء نسـوتنا،

وذلك الفراغ الفسيح ـ الذي كنا نلعب بـه ويلعـب بنا ـ المسكون بالسـكينة وتلـك الخضـرة التـي لا يخدشها إلا وجوهنا ومواسم الحصاد. وعلى آخر عزمه، زعق الشيخ مسعود:

- محمد نجيب.. رئيس الجمهورية يا غنم.

لم يتمالك الناس، وصعدوا المنبـر، وحملـوا شـيخهم الجليل، ونتشوا الجريدة، يقبلون ابن بلدهم محمد نجيب.

- ادعوا معي يا غنم.. اللهم بارك له.

- ...آمين.

- وأيده برسل من عندك.

- ...آمين.

وكان هو عشَاءهم وعِشَاءهم، يناجون صورته الصامتة.

* * *

تبدأ البلاد ـ كل البلاد ـ من النحارية.. تلـك القريـة المنزوية في حضن الخضرة، والبعيدة قليلاً عن مدينة كفـر الزيات، أو هي امتداد حي لهـا. وكـل محطـات التـاريخ ودورانه يبدأ من هنا. بدايات الأشياء من حزن وفرح تبدأ من

هنا. يبدأ الكون هنا وينتهي، ولا بد من التوقف. مرغم أنـت أو غيرك على التوقف. ليس للاختيار معنى. الجبر هنا لـه مذاق فريد، تنتشي منه الحياة والموت والـذاكرة والجسـد. هنا ـ وهنا فقط ـ مساحة للرضا.

* * *

ارتدى زنفل ـ ابن السنوات التسع ـ بذلته العسكرية.. مدركًا لهفته، سينظر إليه من بعيد. فقط، ليتحقق من ملامـح وجهه. الرئيس مخلوق آخر غير الذي رآه في الصورة التي علقها أبوه له في صالة البيت. وهو في طريق مكتب والـده القريب من المحطة، رأى عربات الإسـعاف تتجـه ناحيـة المحطة، وبقعا حمراء متجلطـة علـى إسـفلت الطريـق، ولا تدري الناس من أمرها شيئًا.

كانت الناس تنكفئ، وتقوم على طقطقة الأجساد، وهـي ما بين القضيب وعجلات القطار.

- إيه الحكاية؟!
- الديزل المقابل هرس الناس اللي كانت نازلة تحت.. علـى الشـريط الثـاني، علشـان تشـوف سـيدنا محمد نجيب.

موت وبشر وساطة. هي لعبة إذن؟! من يـدرك سـر كنيتها؟! لا أحد غير القادم بقطاره.

* * *

لوحت بيديك للموت ـ أنت تعرف مخبأه ـ من نافـذة قطارك. من بعيد أتى، ناسيا أمر القرى والبشر.

لك فقط، رمـى بأجسـادنا علـى الـزلط والفلنكـات، وأرواحنا ـ خفيفة. هي فقط أرواح. منذ بدء الخليقة ليس لها معراج ـ تحوم حولك، تصافحك. لك مجد المـوت ولعنـة الحياة. هذه الأرواح لا تذهب ـ إن أردت ـ إلى صـناديق الاقتراع في حرب المشيئة والاختيار.. أجسادنا ـ فقـط ـ هي النصر أو الهزيمة، هي الحزب وهي الأمة، وهي الفـرد وهي الجماعة، كان الملك سابقًا يعرف ذلك. كان يسـتعبدها، يفعل بها ما يشاء.. لكنه في نهاية اليوم، يتركها لنـا. كـان رحيما بنا، وكان يدرك أن الحياة لا تستقيم إلا بالجسد.

* * *

انزوى زنفل داخل سيارة واقفة أمـام المكتـب دون أن يراه أحد، غارقًا في شكل الموت، وكيف يكون.

* * *

قال باشكاتب المكتب:

- مالك يا عم عبد الواحد؟!

- مش عارف الواد فين يا عبد الفتاح. دور عليـه. الله يسترك!

* * *

صرخ باشكاتب المكتب معلنًا عن وجوده. رأى زنفـل عينه الجاحظة، وأنفه الأفطس، فانكمش، وأدرك أنه الموت.

- أنا عمك عبد الفتاح يا زنفل.

جرى عبد الواحد بكل عزمه، وتلقفه من خوفه، واستقر بحضنه.

* * *

تحثو المرأة ـ التي انحلت عصابتها ـ علـى رأسـها التراب، وهي صامتة، وقـد انتفخـت خـدودها الضـامرة، وما زالت تلطم، وهي صامتة. عيناها على بـاب المشـرحة المشكوفة للرائح والقادم، وعلى الأعضاء المرمية فـي كـل مكان، وعلى الصنبور المفتوح ورشاش الماء، وعلـى يـد

المغسل النشط، وهو يدلك الأجساد بالليفة والصابون، ورائحة اليود والكولونيا تذوب برائحة الأعضاء البشرية.

كان المغسل مشغولاً بتسوية الأعضاء لكل شخص على حدة.. أيا كانت الأعضاء. المهـم أن يكـون للميـت رأس وذراعان وقدمان وصدر وبطن، حتى أن المتسول الأعـور المقطوعة قدمه اليمنى قد أكمل له هذه القدم دون أن يعرف.

عشرات النعوش خالية.. واقفة أمام المشرحة، منتظـرة أجسادها، معاونا المغسل وضعا الميت الأول والثاني، حمـل كل نعش أربعة رجال. كانت كل خطـوة زمـن وهـروب ومسافة. هرولت المرأة، ووقفت أمام النعش الأول، ثم نزعت اللحد عنه. بان وجه الميت الأول. كان قابضا على ابتسـامة وعشرين عاما.

- أخوك مات يا عزب.
- وحدي الله يا حاجة.
- أوحد الله؟ حاضر يا أخويا هاوحد الله.

وأمام النعش الثاني، وقفت. ونزعت عنه لحده. كان فكه مربوطًا على صرخة عظيمة، وغضب.

- رايح فين يا محمود؟! رايح أجيب أخويا يا أمه.

- نص رجالة البلد راح يا حاجة.

صارت وحدها، وانتظرت، حتى تتم الأجسـاد الميتـة غسلها، وهي تحثو على رأسها التـراب، وتصـرخ، وهـي صامتة.

أرسلت الكنيسة الوحيدة المطلة على بحر رشيد عربات موتاها، وعربجية سوق الجملة أتوا بحميـرهم وعربـاتهم، بعدما امتلأت سيارات الإسعاف بالموتى والنعوش، حتـى أن كل نعش حمل أربعة أجساد ميتة خلاف خلاف.

* * *

- يا دايم.. ما دايم غير الله.

الجميع كتلة من خشوع ووجع، حتى القسيس بملابسـه السوداء وصليبه يردد ما يردده الناس، لم يتعجب أحد منـه، أو استفسر عن وجوده بينهم.

على ضوء الكلوبات وليلاً، صلى الجميع على الجميع، حتى على اليهودي الوحيد الذي ظل باقيا بمدينتـه، وحـين اندمل الجرح قليلاً، تساءلوا فيما بينهم كيـف صـلينا علـى اليهود والمسيحيين؟! وكان نفس السؤال يتردد في الكنيسـة الوحيدة بالمدينة، ولم يدركوا أن الجميع دفنوا بمقابر واحدة.

ارتدى حذاءه الرسمي وبذلته العسـكرية، وسـار بـين الأزقة والحواري، والبكباشي خلف بهراوة صغيرة، يـدخل البيوت، فتضربه النسوة على صدره ويبكين، حتى جاء دور أم عزب، فوجدها ميتة. جلس تحت رأسها، ونزلت دموعـه على خدها الوارم.

- سامحيني.

وغطاها ببذلته العسكرية، وارتدى جلبابا من جلابيـب عزب، وأمر لها بدفنة رسمية.

* * *

البيوت تنبض بالسكون والسواد، وعسكري الدورية هو الصوت المسموع من بين أصوات البشر بالمدينة.

* * *

ما زال الشيخ مسعود الذي فقد ساقيه يردد، وهو يفـرد بيديه الجريدة التي بها صورته.

- تصوروا: اتعلمنا سوى.. أي والله!!

ما زال الأستاذ دياب.. قياس البلد الذي فقد يديه، وهـو يفرد بقدميه الجريدة التي بها صورته.

- أنا ومحمد نجيب أصحاب.. أي والله!!

* * *

سمع زنفل ـ ابن التاسـعة ـ حكايـات كثيـرة عـن العفاريت التي تطلع كل ليلة، وتقلد صـوت الـديزل وهـو يطحن العظام تحته.

وكانت أم عزب وأولادها أشهرهم على الإطلاق. وكلما نظر إلى صورته المعلقة بصـالة البيـت، وجـدها باهتـة الملامح.

* * *

ارتاح زنفل للخبر الذي شاع، واشترى الجريـدة لأول مرة، وتهجى اسم البكباشي، وفـي نفسـه يصـرخ سـؤاله الصغير: لماذا أخفى نفسه كل هذه المدة؟!

* * *

خيب محمد نجيب ظن زنفل، وعاد للحكم مرة أخـرى، فعلق صورته ـ بعد مسحها ـ بصدر الصالة.

* * *

مرة أخرى يخيب ظن الصبي، فمسك صورته، ومزقها أمام والده.

(هل هناك رئـيس حقيقـي يعزلـه بكباشـي ويعيـده بكباشي؟!)

كان حزنه عميقًا، فلم تعد حركة الضباط الأحرار ملكه وحده. سأله والده: وهو يكنس بقايا الصورة.

- ليه شاله؟!

وظل زنفل وحده معلقًا داخل سؤاله.

الرواة

خرج من مبنى بجوار قصر البارون المهجور، بعـدما عدل نياشينه الكثيرة، وبعدما رفع بنطاله لأعلى، وبعدما ألقى حذاءه المهترئ بجوار الرصيف.

وقف لحظة، ينظر إلى السماء الصافية، وبعض الغربان التي تهبط قصر البارون، وتذكّر عبدة الشيطان. استعاذ بالله، ومسح عصاه، وباس رأس الحية، وقبل أن يخطـو، كانـت عربة فارهة.. كأنها تقصده بشخصه، صدمته، وفرت ناحية المطار، وكل العربات الفارهة أخذت نصيبها من دمه.

* * *

يقول محمد الفحل الذي أُسر في حرب النكسة:

- كان شريكي في الحبس والألم.. لكنه كان عازفًا عن الكلام. كـان أكثرنـا تحمـلاً للألـم. والصـعقات الكهربائية لكنني لم أشاهد وجهه الباسم بعـد تبـادل الأسرى في ٧٣، وكان قد وعدني بالزيـارة ربمـا يكون قد مات، وربما..

صمت محمد الفحل لحظة، ووارى دمعه، وقال:

- أعتقد أنه فقد عقله، لأنني شاهدت شخصا ـ ـ مثلـه الخالق الناطق.. نفس سحنته وبسـمته الهادئـة ـ ـ يرتدي ملابس رثة، معه عصا مثل عصا المرشـال وصفارة، يقف وسط الطريق السـريع، كأنمـا هـو إشارجي المرور.

* * *

بسؤال كشك الشرطة القريب والمنتصب أمـام قصـر البارون قالوا:

- لم نسمع اليوم ارتطام أي جسد بأي عربة، ولم نسمع أي استغاثة أو صـرخة، ولا يوجـد أي أثـر لـدم أو جثة.

* * *

وجدنا أكثر من خمسين بلاغًا عن اختفاء زنفل الحاوي.

* * *

يجزم أحد الرواة: أن شواهد قبره بأماكن كثيرة.. بكـل بلاد تقريبا. لكن لا يجزم أحد أن جسده قد دفن فعلاً.

* * *

يجزم من أثق فيه: أن زنفل الحاوي بلحمـه وشـحمه شاهده بالشانزلزيه بفرنسا، وبجوار الكعبة المشرفة، وأمـام قبر الرسول. ومنهم من قال: إنه يبيـع الجرائـد، ويمسـح الصحون في بلاد الخواجات.

* * *

بالكشف عن اسم زنفل الحاوي بالسجلات، عرفنا بلدته، بعد مشقة وصلنا.

- فين بيت زنفل الحاوي يا حاج؟!
- اخبط أي باب، يخرج لك زنفل الحاوي.

* * *

يقول أحد الرواة: إنه قد أعفي من الخدمة، بعدما اتضح بالكشف الطبي عليه أنه فاقد الأهلية، وأنه ذو حيثيـة، وقـد رقي بالمراتب العليا، وأنه ليس عريفًا، وأن اسمه: زنفل عبده الحاوي.

* * *

يجزم أهل بلدته: أنه لم يمت، ولن يمـوت. هـو مـن أعوان الخضر عليه السلام، وربما يظهر جليا أمام أعيننا في الحرب القادمة، والأمر لا يسلم.

* * *

لا تتعجب من هذه الشخصية، ربما تجدها بين يـديك.. في الشارع أو الحانة.. سحنة هادئة بابتسامة، وربمـا تجـده أشعث أغبر: فقدره حق قَدرِه.

* * *

وما زال البحث جاريا عن زنفل عبد الواحد الحاوي.

ترنيمة للعشق الحرام

استهلال

للعشق الحلال ترنيمـة، وللعشـق الحـرام ترنيمـة، لكنكم ـ هذا ما أراه في عيونكم الآن ـ تريـدون ترنيمـة عشقي..

أنا

أوصيكم:

إذا جاءكم آخر على صورتي، فاقتلوه. فإنه سيرد عليكم بعدي أناس يتشبهون بي، فبادروا إلـى قـتلهم، ولا تقبلـوا ما يقولون.

"من أقوال حواري"

تحت تلك الشجرة التي وقفـت متجليـة فـي وقفتهـا وروعتها، والتي شهدت اختلاج أنفاسه، ووقفته الرائعة، وهو قبالتها، ومستندا على بلاطة مربعة، محاولاً رفعها من تحت إبطها اللين، المشع برغبة أكيدة، تحت تلك الشجرة الوحيدة، والبعيدة قليلاً، وبجوار السياج الحديـدي، والشـجر الـدائم الخضرة المشذّب على هيئة دائرة، والمنتشر على خط طولي جاس. وقف. متذكرا عصافير ظللته، وغردت. كـم تمنـى مرارا أن يترك هذا المكان ـ تحديدا ـ وينـزوي هابطًـا، أو صاعدا، وماسكًا السياج الحديدي حتى لا يسقط في ذلـك البحر. آه يا بحر. فأطلق عقيرته بالآه. والصيادون يرمـون الشباك. لن تجدوا قمقما نحاسيا يغنيكم مدى الحياة. العفاريت لا تخرج من الماء. يجمعون الشبك. يفتحون قماقم صـدفية، يجدون صورتهم فيها، فيلقونها ثانية في البحـر.. (صـياد، وربحت أصطاد، صادوني)، يغني البحر معهم، وهم غرقـى، مبللون حتى المناكب. ونظرات الناس متلهفة علـى رؤيـة سمكة مشبوكة في سنارة أحدهم ولو مرة يتيمة، تضوي دائما السمكة الفضية في عين الصياد، والمطلين برءوسـهم عبـر السياج الحديدي ساعة العصر. آه يا بحر. فـأطلق عقيرتـه

بالآه، وخرجت جيف البحر على الشاطئ، وتصلبت العيـون بعضها ببعض.. كلّ يخرج قذى تلك الرؤية، وتتحرك الأنامل على الخدود، وتحت كل شجرة على الكورنيش عصـفوران يبنيان عشهما تحت جذع الشجرة التي سـترتهما رغـم أن الفاصل بينهما وبين الآخرين لا يزيد عن شبر. سترة ـ هذه الأحاسيس ـ تغشى عيون المارة والباعة. ما أحلى الترمس، والحلبة، والحمص المملح، والقرطاس الطويل الذي لا يحمل إلا القليل من يد ذلك البائع البشوش الذي يرقد هو وعربتـه وزوجه وعياله تحت شجرة استأجرها من البلديـة!! ذبالـة الضوء الشاحب الهارب من السراج الصفيح على عربة ذلك البائع تعلن عن ذلك الوهج الذي يمسك بتلابيـب السـائرين ليلاً.

"يا بحر. أتغلي في أعماقـك، أم هـادئ وديـع، راضٍ بركوب الناس على قفاك اللين، وراضٍ بـانتزاع الصـيادين لفلذات أكبادك أحياء؟! يا لك من عزوف حتى عن الرد".

أمسك حجارة كبيرة، وحملها فوق ظهره، وألقاها فرحا في وجه البحر فانطلقت آهات البحر دوائر مرسومة للعيون، حينئذ فقط: أدرك أن البحر أطلق عقيرته بالآه، فأقعى علـى

الشاطئ، متسلقًا السياج الحديد، وهابطـًا منحـدر الحجـارة المدببة التي أدمت رجليه، حتى لمست يده خد الماء، فأرهف السمع لعله يدرك صوتًا خارجا من الأعماق يشبه صوته.

"آسف يا بحر. قد جرحتك بحجارتي الغليظة. أعـرف. لا تهتم إلا بما أصنع أنا. بيني وبينك شبه. رقـراق مـاؤك، عذب في عيون الصـيادين، والسـائرين لـيلاً، أو نهـارا، والعطشى. ملح مائي يسير ثقيلاً بين شاطئ الجفن المحـتقن بحمرة. آه. أذب ملحي في عذب ماءك يا بحر. يـا بحـر. يا بحر".

وكان المدى يردد صوته، فخلع ملابسه قطعة.. قطعة.

"احمل عني وزري. خبئه، أو خبئني. في جوفك سري. أخرج لي سري أمشي بين الناس على الأرض، أخـالطهم، ينظرون في وجهي، في وجهك، ثم يمضون. لن أقف أمـام بابك يا بحر. اك مفاتيح غيبي، فامنحني القدرة على الغوص ما دمت لا ترد. أخذت ما أخذت وأنت لا ترد".

وظل يمد يده، ويسحبها فمن الماء، ويرهف السمع جيدا. وقال (آه) وغاص، فانطفأ سـراج ذلـك البـائع البشـوش، واستحال الكورنيش إلى ظلمة، وانقلـب الغنـاء، وتغريـد

العصافير إلى شجن، وتفرقت العيون والأجساد تبحث عنـه في الظلمة، أو في بحر.

قالوا: غرق، اختفى. وكان على مقربة رجل يتلصص، عيناه عينا لص، أنفه أنف كلب، وتلتصـق بجـواره فتـاة، أو امرأة.

ركب الصيادون المراكب، وأشعلوا المشـاعل، البحـر كتلة من نار. وظلوا يضربون الماء بلا هوادة. افعلـوا مـا شئتم. والبحر صامت. فتحلق الناس حول الشاطئ، وظلـوا هكذا حتى الصباح.

انفتحت عين الشمس، حين فتح عينيه، فسقطت الشـمس في حضن البحر، وحين خرج من الماء، ولم يشاهد طلوعـه أحد، صرخت النسوة.. لقد كان عاريا تماما. تبسم، فانطلقت عصافير ملونة، وهبطت طيور بيضاء تنقر في الماء. وجزم الناس أنه كان يسير فوق الماء.. لكنه كان عاريا.. لوحـت الأيدي له، فأطلق عقيرته بالغناء، وتمايل الكورنيش لصوته، والطيور ترد عليه وتظلله. فصفقت الأيدي مستحسنة غناءه، وألقت عليه وابلاً.. وابلاً من الحجارة. وحين لحس صـدغه المشروخ، وشم رائحة دمه الحار، انكمش، وجلس القرفصاء،

وعورته ظاهرة، وبكى. ونزلت دموعه، واختلطـت بمـاء البحر. وقال: (يا بحر) فانطلق الموج يخبط شاطئ الكورنيش بقوة، وصرخ الناس وابتعدوا إلا ذلك الرجل الذي عيناه عينا لص، وأنفه أنف كلب. وكانت الريح تقلع الشجر. وهو يـنفخ دافسا رأسه بين منكبيه، وكان صوت غنائه يتردد في جوف المدينة، وجوف الناس، وجوف البيوت، وقالوا فقط: حبيـب البحر، البحر منه، أو هو من البحر.

* * *

وحده حبيب البحر. لا يزعجه أحد. عار لا يهم. وهـذا الرجل الذي عيناه عينا لص، وأنفه أنف كلب ما زال واقفًـا يرقب البحر ويرقبه. لو ترتدي الشمس معطفها الأسود، حتى يظل هو، والبحر، وسره مستترا، حتى عن عين ذلك الرجل الذي يترصده، فأينما يسير على الشاطئ يقف قبالته!!

في تلك الساعة بالذات، ينزوي الناس داخـل الحجـارة المرصوصة على هيئة بيت يقطنون فيه، وتفـر الجـرذان، وكل الحيوانات إلى الجحور، إلا ذلك الرجل الذي عيناه عينا لص، حينما تخلع الشمس رداءها، وتنزل عارية، تضع كفها على الأرض، وتبسط ذراعها على قارعة الطريق. وحيـدة

هي الشمس. ووحيد هذا الرجل على الكـورنيش. وحبيـب البحر قد غطس في البحر. وقد قذف الناس، وهم سـائرون إلى البيوت شيئًا ما يحترق.

حين ارتدى حبيب البحر قطع الماء الفضية التي تلمـع على جسده، قال: (يا بحر) فتقافزت الأسماك في حجره، بين ركبيه، وكان يلقفها، ويكومها، ويختفي مهرولاً هنا.. وهناك بين الصخور، حتى يكوم حطبا، وقشا، وورقًا. من أين لـك بالنار يا حبيب البحر بعدما بسـطت الشـمس كفهـا علـى الأرض، وزفر الكورنيش بوحدته، ولم تطأ قدم تلك البلاطات المربعة الكبيرة الحجم، التي تنبت عند حوافهـا الحشـائش الخضراء، التي ما فتئت أن غيرت لونها في تلك الظهيرة؟!

أشعل الرجل الوحيد الذي عيناه عينـا لـص سـيجارة وحيدة، كان قد ظل يمسكها من ليل البارحـة، ولـم تبـرح أصابعه، حتى انتهى منها سريعا. وكان حبيب البحر يلـوح له، فرمى عقب سيجارته المشتعلة، مسـكها بفـرح حبيـب البحر، ووضعها فوق قشّه المكوم، ونفخ، من أين لك بالنار، وأنت تطفئ نارك بماء البحر المقدس؟! لم يشتعل قشّه.. بـل صعد من جوفه دخان أسود. ظل ينفخ مـن دخانـه، حتـى

ارتدت الشمس معطفها الأسود، فأمسك عودا ناشفًا قد اختاره بعناية، وحكّه بصدره العاري، فاشتعل، ورمى سمكات النهار التي تمددت بلا حراك فوق ركبته التي صـنعها. ورائحـة شواء السمك تغري كل السائرين ليلاً بالولوج عنـده.. عنـد ذلك المثلث المرسوم بحجارة صغيرة وكبيرة مدببة، منحدرة، وعالية، لا يستوي المثلث أبدا إلا عند حبيب البحـر. وكـان ذلك البائع البشوش قد هبط إليه بعدما تسلق السياج الحديدي، وخاتله، واختلس بعض السمكات لعياله وزوجـه الراقـدين تحت تلك الشجرة التي استأجرها من البلديـة. لـوح البـائع البشوش لحبيب البحر بعدما التهم عياله وزوجـه السـمكات بفرح، بل نزل إليه، ومعه قرطاس حمص مملح. والسـراج الصفيح رغم برودة الجو، وقسوة الريح يزداد وهجـا كلمـا اقترب البائع منه. تلك النار ناره بعدما غطّسها بماء البحـر الذي أمامه آلاف المرات. لكم النور، ولـي وحـدي النـار. والسراجة الصفيح تزداد وهجا، تحمـل الكـورنيش نزعـة السهر الأكيد. وقد أشعل له سيجارة ملفوفة بيديه المعروقتين، وصعد لعربته يغني، ويغني السائرون ليلاً معـه، وبأيـاديهم قراطيسه المملوءة الطويلة، وغنى (يا عشاق النبي) فانهالـت

عليه القطع المعدنية ترن في ذلك الطبق الفضي، الذي تقبـع فيه القلل الفخار المملوءة بماء الطلمبة.

ورمت قدم الكورنيش من وقفته طـوال النهـار حتـى منتصف الليل، فقام البائع البشوش يحمـل أثقالـه، ويجـر عربته، وقال لحبيب البحر ملوحا: (تصبح على خير) ورمى له قبلة في الهواء المنعش، وسار يدندن بأغنية كان يغنيها في ذلك الصباح البعيد، حين رأى زوجه - التي بجواره الآن - تقف تحت تلك الشجرة، التي استأجرها من البلدية فيما بعد - تغني: (يا عشاق النبي) على مسمع من الكورنيش، وتخفض صوت غنائها بأغنية كانت حبيسة، هي أغنية كانت لرجـل غائب، هي الآن معه، لكن أغنيته حبيسة.. تلك التـي كـان يغنيها في ذلك الصباح البعيد، لما رآها أول مرة.

لا يمكن بحال من الأحوال أن يظل هذا الرجـل الـذي عيناه عينا لص، وأنفه أنف كلب واقفًا أمام حبيب البحـر. لا شيء غير أنه عار تماما، هل حلّت روحه في جسـد ذلـك العاري المسمى بحبيب البحر؟! ربما يعرفه. قرابـة مـثلاً. ربما يكون هذا الارتباط هو هذه الفرجـة التـي لا يقابلهـا الإنسان إلا مرة واحدة في حياته. ربما.

قال هذا الرجل الذي عيناه عينا لص في نفسه. إن ذلك البائع يعرف عن حبيب البحر شيئًا. لماذا لا أمسكه؟! حينئذ. يعترف لي بكل ما تخزنه ذاكرته الملعونة. لو أنني أستريح من هذا الهاجس الذي يلح علي، ويجعلني كتمثال أمام ذلك المخلوق الهائل الذي يسمى حبيب البحر؟! جميعا عشاق البحر.

حين خطر بذهنه أن البائع البشوش يعرف الكثير، هرول وراءه، وتلال القذارة في المدينة ترتفع على مرأى من حاكم المدينة، وكان البائع قد التحف بزوجته وعياله، ونام يشخر، فرجع الرجل الذي عيناه عينا لص يكنس المدينة برجليه الثقيلتين، والصمت حبل الإنسان الحي، ونجاة للإنسان العاري. ذلك الصمت الذي يجعلنا في مأزق. هو لا يلتحف ـ حبيب البحر ـ بشيء غير صمته، الذي يجعلنا نحن المتأنقين غير راغبين إلا أن يكون مثلنا. وفكر الرجل الذي عيناه عينا لص أن يتسلق السياج الحديدي، ويهبط إليه، لكنه خشي على نفسه. وهو الآن لا يعرف له طريقًا، والظلمة والبحر يساعدانه في الاختفاء. لو أستطيع فقط أن أمسكه نهارا. لو!! لكنه اعتزم أن يظل واقفًا حتى يفتح حبيب

البحر عينيه، بعدها تفتح الشمس أبوابها، حينئذ فقط، يمكن أن يمسك حبيب البحر، ويكون معه وجها لوجه.

* * *

انفتحت عين السماء برغبة أكيدة في البكاء، ولم يفـتح حبيب البحر عينيه، فظلت الشمس في مكمنها، وظلت السماء تمسح عن جفنها ثقل الماء العالق. قم يا حبيب البحر، افـتح للشمس عينًا، وأغمض أخرى إن أردت. لكنه ظل ممددا بلا حراك، مستلقيا على جنبه، واضـعا ذراعـه ـ أي ذراع ـ ساترا للشمس.

ستلتحم شـقوق الأرض العطشـى، إلا هـذه الأرض المبلطة، وستتورد خـدودها، وستضـع ورودا علـى ياقـة قميصها الأخضر. رسالة السماء طالت كل اليابسة.

ظل حبيب البحر ممددا بلا حراك، يوم، ثلاثة، كثير من الأيام، هل نام نومته الأبدية فتوقف الـزمن؟! وقـد ظلـت الأشياء بلا حراك يحدوها الأمل في أن يبعث مـن جديـد، فتكتسي بألوان أخرى غير الصقيع والصمت. ظل ممددا بلا حراك.. والذي يرقبه تيبست أعضاؤه، وأصبحت من رخام، غير أن نظره فقط هو الحي، يعلق حياته على صورة حبيب

البحر، هل تشتكي الأشياء صمتها؟! ظلـت الأشـياء علـى موضعها كما هي ثابتة، حتى ضج البائع البشوش بالشكوى، وهو الذي يدفع إيجارا لتلك الشجرة العارية الآن. عقد بـين الشجرة وبين البائع. لو قطعت، قطع. كم هي وحيـدة هـذه الشجرة الآن. خلعت أثوابها على الكورنيش، فكنسها كنـاس الكورنيش، فنزفت ماء حياتها قطرة.. قطـرة، وتعلـن فـي المدى أن العشق دوار. هذه الشجرة من حال البـائع، لكنـه ضج بالشكوى.

لما ضج بالشكوى، وكان يناجيه سرا، وعينـاه تمسـح البحر لعلها تجد حبيب البحر، رفع صوته قائلاً: (يا حبيـب البحر)، فلما سمع صوته الحزين، رفع ذراعـه مـن علـى عينيه، فاستقرت الشمس تلهو، وتستحم في البحر بعد الغياب، وتحركت أعضاء ذلك الذي يرقبه، وغنى البائع: (يا عشـاق النبي)، وجرت الزوجة عياله وعربته، وجلسوا تحـت تلـك الشجرة، وغنوا جميعا في ذلك اليوم أغنيـة تـذكرها كـل السائرين في ذلك الليل أو النهار، معلنين العودة كـل يـوم، وبأياديهم قراطيسه المملوءة الطويلة.

* * *

هل توقف زمن الذي يرقب حبيب البحر حينمـا ظـل ممددا بلا حراك، أليس له عمل، ألم تستدعه الحاجة، ورفـع ثوبه ولو مرة وحيدة في هذا الزمن الذي توقف؟! الشـكوى راحة يا هذا الذي ترقب حبيب البحر، لكنه ظل يرقبه.

قالوا له في البداية:

- قد تغيبت كثيرا عن العمل.

قال:

- بإذن.

قالوا:

- العمل تكدس عليك.

قال:

- هاتوا أعمله.

وألقوا فوق الرصيف ذلك الكم الهائـل مـن الـورق، ولوحوا له بورقة متعجبين، أشاح بوجهه ناحية البحر قـائلاً: (تعسف) ومضى يقلب بعـض الأوراق. أيمكـن أن تنتقـل مصلحة حكومية محترمة لها مبنى عتيق وسط البلد للعمـل على رصيف الكورنيش أمام البحر؟! المباني أيضا لها حرية

التنقل. هي راغبة في التغيير. وكان الساعي ينتقل فقط بـين ذلك الذي يرقب حبيب البحر، وبين المصـلحة الحكوميـة، يرمي تحت نظره الثاقب كل الملفات، ويوقع الـذي يرقـب بالاستلام، ويمضي الساعة إلى عياله فرحا، ومبكرا كل يوم.

* * *

بعد يوم، ثلاثة، كثير من الأيام، تذكر الرجل الذي عيناه عينا لص أن عليه النزول الآن إلى حبيب البحر، ويقف قبالته وجها لوجه.. ذلك الوجه الـذي لـم يعـد يحـدد تفاصـيله المتشابكة، والذي اكتسى فقط بلمعة الماء. حين أسـند كفـه الأيمن على السياج الحديد، ارتفـع صـوت تـردد كثيـرا (فليتطهر الراغبون في مجدي، والداخلون إلـى محرابـي، يا أولاد) تراجع، ولا سبيل إلى حبيب البحـر إلا أن يتسـلق السياج، ويتحمل بصق رجليه لدمائه على الأرض المدببـة. طريق الدخول إلى ذلك المخلوق الهائل، هو بطاقة دخولـه، وبطاقة دخوله أن يصبح عاريا مثله. وكان قد قلـع هدومـه قطعة.. قطعة، أمام أعين الناس. لا. لقد ظهر فجأة عاريـا، ترك دمه الفاسد النازف من رجليه فوق الحجـارة المدببـة، فنضح، لكنه تذكر وجهه الممصوص، وخشي مـن فداحـة

الدخول، والقربان. ربما يعطي دمه، ولكنه أيضـا، وربمـا لا يعود بشيء. هكذا تراجع بعد أن كان علـى أول طريـق المثلث المرسوم بتلك الحجارة المدببة، وبعدما أحس بوجـع سقوط أول نقطة دم. وكان على الطرف الآخر من المثلـث حبيب البحر فارد ذراعيه، مبتهجا، صانعا من صدره العاري محرابا، لكنه تراجع - الذي يرقب حبيب البحـر - بعـدما أحس بوجع يأكل قلبه، وتحـول نظـره - الحـي - إلـى الكورنيش، فالتقى بوجه البائع البشوش.. ذلك الـذي قهقـه عاليا، راسما بسبابته الغليظة بنادق تخترق جسده. ضم حبيب البحر ذراعيه، ولم يعد أحد يراه. وارتدت الشمس معطفهـا الأسود. ولم ينس الرجل الذي عيناه عينا لص وأنفـه أنـف كلب قهقهة البائع البشوش، وحمل أوراق مصلحته الحكومية الكثيرة، ومضى لاعنًا البحر، والناس. والبائع.

* * *

الكفوف المتعانقة الآن تغني مع البائع البشوش أغنيتـه المفضلة.. تلك الأغنية التي يراها فـي عيـون الممسـكين بقراطيسه الطويلة المملوءة. ما أجمل الأغاني القديمة التـي تفوح بذكرى بعيدة صعبة المنال!!

في هدوء تتساقط قطرات الزمن من الكفوف المتعانقـة. وكف حبيب البحر تقبض على وعـدها المشـئوم، منتظـرة لحظة الخروج، لتفرد نفسها لاحتضان ما غاب. كف وحيـد. والبحر لا يبالي بما يعانيه، لكن حبيب البحر قد ضج.

"لأضربنك يا بحر إما أن تموت أو أموت أنا".

وكان يضرب الماء، بعدما حاول كثيرا أن يحتفظ به في كفه. أحس بعجزه، فبكى، ونحيبه غطى على أغنية السائرين، حتى ارتدى صوته وشاحا أسود، ارتداه جوف المدينة وجوف البيوت.

"لن أقف أمام بابك يا بحر طويلاً، لك مفـاتيح غيبـي. فامنحني القدرة على الغوص مـا دمـت لا تـرد. أخـذت ما أخذت وأنت لا ترد. ها أنا لا أملك شـيئًا غيـر أمنيتـي يا بحر. يا بحر". وصرخ صرخة عظيمة.

* * *

أطل حاكم المدينة من شرفته، فلفحته نسمة باردة آتيـة من جوف البحر، فأدرك أنه قد نسي منذ فترة طويلة أن يفتح تلك الشرفة المطلة على البحر. وكان قـد تعـود أن يسـدل

ستائر سميكة على تلك الشرفة، عجبا!!.. الناس تترك جوف مدينتي، وتلتصق بهذا الشريط الضيق.

المدينة ترتدي ثوب حدادها الآن، وحاكم المدينة قد جزم أن عزيزا قد مات. المدينة تعرف موتاها. انزعج حينما رأى زوجته وابنته تلوحان له، تنزحان نحـو الشـريط الضـيق. عجبا!! إن زوجتي وابنتي تتشحان بملابس سوداء أيضا، لـم يخبرني أحد بموت أحد من أقاربها أو أقاربي. ضغط علـى زر أمامه.

- هذه فوضى. يجب إرجاع الناس لجـوف المدينـة، وجوف البيوت.
- لا نستطيع سيدي الحاكم.
- لِم؟!
- إن المدينة تلبي نداء البحر، وحبيب البحر.
- يجب إرجاع المدينة إلى عهدها القديم، ولو بالقوة!!
- صعب سيدي الحاكم. إن نداء حبيب البحـر قـوي، بحيث لا يسمعه سامع إلا هرول إليه.

- إن حبيب البحر يقع تحت سلطتي. أنا حاكم المدينة، فقل له إذن أن يصمت أو يرحل بعيدا.

- سيدي.. لم يجزم أحد أنه قابله وجها لوجه.

* * *

وقف الرجل الذي عيناه عينا لص، وأنفه أنف كلب أمام حاكم المدينة، وقبل أن يدخل عدل بدلته، وأزاح بقعة كانـت عالقة بحذائه الأسمر اللميع، وخبط الباب بسـبابته طرقًـا.. خفيفًا على غير عادته، وحين أصبح قبالته تماما، حياه، وهاله أن رأى البقعة ما زالت عالقة بحذائه، ولم يفق من شـروده، إلا حينما هب حاكم المدينة واقفًـا، وهالـه أن رأى جثتـه الضخمة، وشعره الأشيب، ويده تربت على كتفه، وقد أحـس بثقل، لكنه تمالك.

- امنع هذه الجمهرة. إني خائف على زوجتي وابنتي. كن لينًا، وحازما في آن واحد. المشكلة ليسـت فـي الناس.. بل في ذلك الرجل الذي يدعى حبيب البحر، وأغنياته.

لو تعرف سيدي الحاكم أني لا أعلم شيئًا عنه، غير تلك الأغنيات التي تتردد في جوف المدينـة، وجـوف النـاس،

وجوف البيوت. لو!! أنا الذي تيبست أعضائي مترقبا إيـاه، عسى أن أكون معه وجها لوجه. الآن أصبحت أمنيتي أمنيـة عامة، وها أنت تأمرني سيدي الحاكم، فامنحني الوقت.

انحنى قليلاً، وأدار رأسه الجميلة ناحية البـاب. أوقفـه حاكم المدينة.

- خذ هذا، ربما يساعدك.

انحنى أكثر، وشكر لحاكم المدينة عطفه وكرمه، ومـد يده، والتقط الملف. ووضعه تحت إبطه، وسار خارجا ينظر فقط لتلك البقعة التي ما زالت عالقة بحذائه، رغم أنه مسحها أكثر من مرة، وظل باقي يومه شاردا، يفكر في أمر البقعة.

هل لوح للسائرين على الكورنيش بالملف؟!

سار منتشيا، يغني. يسمع الناس دندنته، وصوته أجش، خشن. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، أو دعوته للسكوت. وقد أطاع الناس فرحه، فبدءوا فعلاً يحشون الآذان بـالقطن والقماش حتى ابتعد.

على بسطة السلم الرخامي، أدار رأسه لناحية ما قبل أن يدير رأس المفتاح.

- أنت سعيد جدا الآن.

لوح له بالملف، فأمسك ذلك الشـخص الملـف يقلـب أوراقه. ها هو الحلم البعيد يتحقق في يسـر. وظـل ذلـك الشخص الذي أمسك الملف صامتًا.

هل دخل معه الشقة، أم هبط درجات السلم الرخامي؟!

خلع الذي عيناه عينا لص، وأنفه أنف كلـب ملابسـه قطعة.. قطعة، وهو يطوحها في الهواء لتستقر بين يدٍ مـا، أو على أرضية الشقة. رد يا آخر. أعتقد أن عيونـًا ذرفـت بعض الدموع، فأدرك الذي عيناه عينا لص ارتعاشة الآخر، وانزعج ولبس ملابسه على عجل.

لو ضاعت ورقة ضعت!!

والآخر - أي آخر - لا يرد، فتوجـه مباشـرة نحـو الملف بلهفة، وأخذ يقلب أوراقه.. ورقة.. ورقـة، وقهقهـة عالية تأتي من جهة ما. لم يجد شيئًا يذكر علـى الإطـلاق. الأوراق جميعها بيضاء، أدرك على الفور ورطته. لا شـيء يدل على صاحب هذا الملف. خدعني أيضا حـاكم المدينـة. أخادع هو أم مخدوع؟! أنا لا أعرف عن صاحب هذا الملف غير أنه حبيب البحر. أكان يعرف حاكم المدينة أن الأوراق بيضاء؟! ربما يكون هذا اسمه. لو طلبني ماذا أقـول لـه؟!

وربما يكون صفته. كل شيء على ما يرام سيدي الحاكم. لا تخش شيئًا، نحن نتعقب أثره، بصفته أو باسمه، ولا تخـش على ابنتك، وزوجتك، هذا كل ما يهمك يا سيدي.

يجب علي إذن أن أملأ هذا الملـف بـأي شـيء وأي صورة. نعم أي صورة!! وارتاح قليلاً لهذه الفكرة، وخـبط رأسه بقوة، وتذكر بقعته العالقة جيدا بحذائه.

* * *

المدينة الآن قد خلعت ثوبها، ورحلت صـوب البحـر. والبائع البشوش يصنع القراطيس الطويلـة بكثـرة، وعلـى عجل، وزوجته تغني (يا عشاق النبي)، كان صـوتها خافتـا قليلاً، لا يسمعه إلا زوجها.. لكنها توزع بعض البسمات على المارين وعمال البلدية قد مدوا أياديهم ـ واليد العليا خير ـ واستلموا إيجار الشهور المتأخرة لشجرة البائع.

غاب حبيب البحر عن العيون، فغابت الشمس التي ظلت تلازمه، ونسوة المدينة يتشحن بوشائح سوداء.. قاتمة، جعلت بياض، وطلاوة أجسادهن تشع ببعض النور مع سراج ذلـك البائع البشوش. وحاكم المدينة ينتظر عودة الزوجة والابنـة منذ وقت طويل بدأت جائزة الانتظار مواتية للجميع.

الأمواج الآن تعلو فوق صوت حبيب البحـر، فصـرخ صرخته العظيمة التي ترددت فيما بعد في جـوف المدينـة، وجوف البيوت، وأصبح لها فيما بعد ذكرى تتشح بها بوابـة المدينة، وأصبحت علامة مميزة لكل الخارجين، أو الداخلين إليها. لما صرخ قال: (يا بحر) فارتجفت المدينة بمن عليها، وأسقطت عيونها الكثيرة ناحيته، وظهر لها عاريـا تمامـا. وكان الموج يخبطه بقوة. ولما اسـتقر المـوج قلـيلاً، رأت عيون المدينة أن بين وركيه حقيبة يد صغيرة، وأخذ يقبلهـا، ويضمها لصدره العاري، ساكبا بعض دموعه التـي ظلـت بجفنه. حينئذ فقط تشجع الرجل الذي يرقبه، وخطف سـراج البائع البشوش، وتسلق السياج الحديـدي، وهـبط منحـدر الحجارة المدببة، ولم يخش نزف دمائه. وحبيب البحر جالس القرفصاء ينظر فقط بين وركيه، ويبكي، لامسا حقيبـة اليـد الصغيرة، ولما سمع حبيب البحر صراخًا شديدا، نظر أمامه. كان قديما قد فرد للقادم ذراعه. وكان بينه، وبين ذلك الرجل الذي عيناه عينا لص مقدار ذراع. قال: (خذني يا بحر) لكن البحر في هذه المرة لم يطاوعه، فظل يطفو علـى السـطح عائما، ومتعبا. والرجل يحاول الإمساك به، ثم تسلق السـياج

الحديدي عاريا. والنسوة يفردن ملاءتهن السوداء ليضـممنه (اهرب. أرجوك اهرب) فيدخل في عباءة إحـداهن. وحـين يدخل تصبح صاحبتها عارية تماما ـ مثله ـ وترى عريهـا الجميل فلا تخجل. وظلت الملاءات تخبئه. حتـى أضـحى الكورنيش عاريا تماما، الرجل الذي يرقبه وقف أمام زوجـة الحاكم وابنته، ورأى الوشائح السوداء وهي تسقط، وأصبحتا عاريتين مثل الجميع. حينئذ فقـط، أدرك أنـه لا يسـتطيع الإمساك به في هذا الوقت. وهذا الجمع. ولمـا تحقـق أنـه هرب. رجع إلى مكانه على الشاطئ، ووجـد حقيبـة اليـد الصغيرة منتظرة يده، ففرح، وأمسكها بقوة.

"كنت أرتاب فيك دائما، وقد تيبسـت أعضـائي، وأنـا أترقب البحر، وأترقبك، والآن هذه الحقيبـة سـوف تبطـل سحرك. وتكشفك أمامي على الأقل. المذنب يظل يدور حول ذنبه. إن هذه الحقيبة تخص فتاة، أو امرأة، هل تترك الأنثى حقيبتها إلا أن تكون قد لاذت بالفرار.. بالموت أو الهروب؟! هذا حق. إن حقيبة الأنثى تعني حياتها فعلاً، فلن تتركها لأي سبب. أدركتُ منذ رأيته على الشاطئ يبكـي أنـه يطلـب غفرانًا ما. ها أنا أحمل نفسي صب التهم، أو تبريرها. مذنب

أو غير مذنب، تلك حقيقة لا تهمني كثيرا. فقـط يجـب أن أعرف لمن هذه الحقيبة، أهي حية ترزق؟! إن معي ما يثبت أو ينفي.

أمسك الحقيبة بقوة، وسار في سكك المدينة، لا يعـرف أي الطرق توصل إلى شقته، وظل يدور في دروب المدينة، حتى انتهى إلى شقته، بعدما هبط الظلام، وقد أحس بحاجـة إلى النوم.

* * *

فرغ حاكم المدينة من صبره، فعبثت أنامله بالأشـياء، وقال في نفسه: (أنتظر)، وانتظر على مضض زوجته وابنته اللتين لم تعودا، حتى طمس الظلام معالم المدينة.

- يا فضيحتي!! عاريتان تعودان، وفي هذا الوقت، ماذا بقي لي إذن في هذه المدينة، ألا تخجلان؟

ظلتا صامتتين، وقد تورّدت الوجنات.

- سأفعل غدا ما يحفظ لي ماء الوجه.

* * *

الرجل الذي عيناه عينا لص، وأنفه أنف كلب قام مـن نومه على خبط شديد فوق بابه، وقد تحسس أماكن عدة مـن جسده. مذهولاً وصل إلى بابه. قال له طارقه:

- حاكم المدينة يقول لك: يجب أن تمسك هذا الوغـد، وإلا..

وانصرف الطارق، بعدما طرق قلبه بالتوجس الذي كان يحبسه، ويعمل له ألف حساب. تذكر حقيبة اليد الصـغيرة.. الحقيقة الملعونة، ارتمى عليها، ومزق أجزاءها. لم يجد شيئًا غير صورة لأنثى، ولم يجد اسما، أو عنوانًـا يـدل علـى صاحبة هذه الصورة. وقد رمى ببعض النقود الورقيـة فـي تلك المدفأة التي تجلس أمامها الآن. ارتدى معطفه، ونـزل. يرتعش الضوء في عينيه، والهواء يلعب بالبيوت. كان يجب أن أبدأ عملي مع تباشير الصباح. هو الذي تعـود دائمـا أن يعمل بالليل. سار في سكك المدينـة قاصـدا بيـت البـائع البشوش. وكان جالسا عند مدخل البيت، واضـعا السـراج الصفيح على بابه:

- لقد أرحتني، هل تعرف هذه الصورة؟!

- لا أعرف.

- الاسم. العنوان. أي شيء.

- لا أعرف.

- تحقق إذن من ملامحها.

- إني لا أنظر جيدا بالليل.

خاتله البائع، ورمى أقدامه في سكك المدينة الواسعة. إن هذا البائع يعرف شيئًا ذا قيمة، تتبع أثره. كل ما أطلبه فقـط أن تدلني. هذا شيء ليس بالكثير. وكان البائع قـد اختفـى. وكان يهرول وراءه، فأوقفه الخفير الذي كان يقف في ظـل شجرة ما مختبئًا. وهمس له طالبا أن يختفي وقـال: (حتـى يذهبوا) فقد كان بعض الفتيان يقومون بإلقاء الحجارة علـى سراج ذلك البائع الهارب.. ذلك السراج الذي تركه بجانـب بابه.

حملتهم أقدامهم، حينما انطفأ السراج، والخفير ينظـرهم في هدوء. والسراج يرمي بالحجارة كل ليلة. وأما الخفيـر، فكان ـ فقط ـ يختفي هو الآخر، ليحمي رأسه، ليراهم كـل ليلة، لو يخبر حاكم المدينة بهؤلاء الصبية التي تعبث أناملهم بهذا السكون!! تلك مدينته الهادئة التي لا يسمع فيها سـوى صوت، يخرج من ناي شرقي. كما تنطلق بعـض الكـلاب

مستبيحة لنفسها أن تخمش ذلك الصمت. لو هاجمك الموت، وصحت مستغيثًا، لما فتح من أجلك باب من الأبواب!! سلام على جميع المفقودين في ليل المدينة الذي يحرسه الخفير.

لو يخبر الخفير حاكم المدينة!! كيف وهو لا يعـرفهم؟! وهؤلاء الفتية ينتسبون لليل، وظلام، ولم يحسوا بوطأة البرد. وقد نالوا قبل مجيء الليل حظًا من الطعام والشراب، وبالغوا في الملبس والأناقة. لتغفر لي وظيفتي!!

الخفير يواصل هربه طوال الليل. وعندما لا يسـتطيع يقول:

- اذهبوا قليلاً إلى منطقة أخرى.
- لن نذهب.
- لا تذهبوا.
- إنك لمجنون.
- أعرف ذلك، وكل يوم يزداد جنوني. الحاكم نفسه قد قال لي: المدينة على حافة الجنون فـاحرس عقلهـا الباقي، وأي شيء أخبرني به فورا.
- أتريد أن نلقي بك في البحر؟!

والليل يتيح له أن يرى، ويسمع أشياء كثيـرة، فالليـل خفاء، هو يعرف بالليل ما لا يرغب في معرفته. وفي إمكان البعض أن يستخدمه في شيء، بشرط أن لا يعود إلى أولاده فارغ الكفين. كان يسمع هذه العبـارات لجاسـوس بالنسـبة للجميع. كان يود أن يحكي له شيئًا. بعدما ابتعد الفتية. حينما أصبح قبالته تماما، حياه، ثم دعاه أن يصحبه فـي شـوارع المدينة، تعال هناك. إلى البحر في ذلك الوقت. الإنسان الحي ينبغي أن يرى كل شيء، وبخاصة تلك الفترة الجميلـة مـن آخر الليل. أخرج له الصورة، فتأملها، وتبسم قائلاً:

- جميلة!!

لقد رآها حقًا هذا الذي يبلغ من العمر أرذله.

- هل تعرف لمن هذه الصورة؟!

انتابه الحزن عندما لم يرد. وكان يود أن يجـري هـو الآخر. أمسك بذيله وقال:

- إنني أنام بالنهار، وأصحو بالليل.

تركه واقفًا تحت سقف أحد الأبواب، متعثرا بوحدتـه، وقد أخفاه الظلام. لقد كان لزاما علي أن أبقى مـع الخفيـر

أحرس الموتى أمام بيت البائع البشوش، وأحكي له شـيئًا، أو يحكي لي شيئًا.

حينما اقترب الخفير من البحر ـ وهو الذي تعود كـل ليلة أن يراه قبل الفجر ـ خفق قلبه وعندما بدأت الخطـوات تضيق، حتى التصق بالسياج الحديدي، برز له شخص مـا. رأس فقط. وحاول أن يكون لطيفًا معه من أجل خوفه الـذي ظهر كما ظهرت رأسه، وقال للخفير.

- لقد ظللت خارج اللعبة طويلاً، إنني أنتظرك منذ مدة.

لزم الخفير الصمت. ماذا علي أن أقول؟! إن هذا الوجه مألوف لي ونظر إلى المدينة وعندما أدار وجهه ناحية الرجل الرأس، كان قد نسي ملامحه، أدار وجهه مرة أخرى محاولاً أن يحفظ وجهه، لكن دون جدوى. وتذكر مـا قالـه حـاكم المدينة، وقال للرجل الرأس.

- إن حاكم المدينة يطلبك. اذهب إليه. إنه طيب. نعـم طيب.

- لو ذهبت، سأجد نفسي مكبلاً بالأغلال، وسيحبسـني في تلك القلعة البعيدة المهجورة.

- لم ترتكب جرما!!

- أنا واقع تحت سلطان الإدانة.

- قد تعودت أن تكون حرا، وسـيكون الأمـر عليـك صعبا.

دعني أخمن من أنت. أرجـوك، لا تسـاعدني، إننـي أعرف موتى مدينتي التي أحرسها. قليل هم الأحياء في ليالي الكثيرة. أنت أيضا حي. أرجوك لا تساعدني. إنك إذن حبيب البحر.

أصابت الخفير رجفة، فترك نوبته، وتـذكر زوجتـه، وهرول ناحية منزله، وأغلق الباب عليه وزوجـه، وأحكـم المزلاج، ثم نام.

* * *

انتظر الرجل الذي عيناه عينا لص، وأنفه أنـف كلـب البائع البشوش، الذي استقر توا تحت تلـك الشـجرة التـي استأجرها من البلدية، لم يهرب البائع حينما أمسك عربته.

- ماذا تريد مني؟!

- هل تعرف صاحبة هذه الصورة؟!

ولما أظهر له بطاقة ما، رفع كفه حتى وصـلت إلـى جبهته، وهب واقفًا، منتبها.

- أنت تنظر جيدا. أليس كذلك؟!
- نعم، أنظر جيدا بالليل سـيدي، ويـرتعش نظـري بالنهار كما ترى.
- قل أي شيء.. أي شيء.
- إنها كانت تسير دائما على هـذا الشـاطئ، وتلهـو بالقراطيس المملوءة، وكانت تدفع أكثر مما يجب.
- تسير وحدها؟!
- لا.
- أتعرف شكل هذا الرجل؟!
- إنه.. إنه.. إنه يشبهك إلى حد كبير سيدي.
- لا أحد يشبهني في تلك المدينة يا ملعون.

ومضى إلى شقته، ونام بقية يومه.

قام من نومه نشيطًا، وقال: (يجـب أن أتنـزه قلـيلاً، وأكافئ نفسي) في السكة الجديدة طريق السيد البدوي ـ مدد يا رفاعي مدد ـ سار. وتذكر أنه منذ فترة طويلة لـم يجلـس

تحت الصاري. رأى فيما يرى النائم أو السكران، وهو يتابع جحر البدوي الضيق، الذي يتسع لمريديه، أن شخصـا مـا يشبهه إلى حد كبير قد دخل إلى المقام.. بركاتك يا بـدوي، وصدقت يا بائع، وهو على عتبة الدخول، وجد الناس تنظـر إليه باستغراب. والرجل الجالس في مدخل المقام يمنعه مـن الدخول، ويشير بسبابته نحو الأرض، فتذكر بقعـة حذائـه، وأنه لم يخلعه، فطوحه بعزم يديه، وسب كل الناظرين إليـه. هذا الذي يشبهه قد دخل بنعله إلى المقام، كيف دخـل ولـم يعترضه الرجل الجالس في المدخل؟! جلس بجـوار الـذي يشبهه تحت عامود الرخام. بجوار المنبر من الناحية اليمنى، أو اليسرى. وارتاح أنه جالس بجواره. لكن الذي يشبهه لـم ينظر إليه قط. فتمنى أن يجره في هذه اللحظة. أيـن أنـت يا حذائي؟! لكنه ارتاح حين جلس بجواره، ثم غفا قليلاً. يا له من ملعون!! لقد سبقني إلى الخارج، يجـب أن ألحـق بـه. وحين كان خارج الجامع، أدرك أن كل الوجوه تشبهه إلى حد كبير. إنها لعبة شيطان قدير. لو أسـتطيع أن أمسـك بكـل هؤلاء!! أتى بحبل طويل من مكان ما، وربط معصمه أولاً، حتى لا يهرب أي منهم، جميعا مقيدين بحبله، هل أنا قـوي

إلى هذه الدرجة، أم هم ضعفاء إلى هذا الحد؟! يجب ألا أفكر في ذلك مطلقًا.

فتح باب شقته، واستقروا جميعا بها، وفك قيدهم أيضا. وقفل فقط باب شقته، ثم رفع صورتها عاليا.

- هل تعرفون صاحبة هذه الصورة؟!

قالوا جميعا:

- نعم نعرفها جيدا كما نعرفك.

وعجز عن اختيار واحد منهم، لكنه في النهاية اختار واحدا يشبهه إلى حد كبير، كأنما يرى نفسه في مرآة:

- أتعرفها حقًا؟!

- أعرفها بذلك الذي لم يكن لي مهما.

- تحدث.

- لا أستطيع التحدث معك. إني متعب قليلاً. أعطني فقط ورقة وقلما. فتذكّر الملف الذي أعطاه له حاكم المدينة، فوضعه أمامه. والذي يشبهه قد أخذ قلمه الخاص من جيب قميصه، وكتب الذي لم يكن له مهما.

حين انتهى من كتابة ما يعرفه عن صاحبة الصـورة، اختفى. واختفى كل الذين يشبهون ذلك الرجل الـذي عينـاه عينا لص، وأنفه أنف كلب. كيف هرب الأوغاد. وأنا القابض على مفتاح شقتي، الذي يتدثر بحضني من ليل البارحة؟! لقد تركني على محجة بيضاء، وملأ أوراق الملف. سمع دقا قويا على بابه.

- حاكم المدينة يطلبك.

حمل الملف. وسار يغني. كل شيء يتعلق بي الآن فـي انتظار الفصل وقف أمام حاكم المدينة، ورأى طفلين ورجلاً، وذلك البائع البشوش. ورائي هذا البائع.. صـافح الطفلـين. والبائع، ولم يصافح الرجل. فقال له حاكم المدينة.

- إنه إبراهيم.
- آه.. إبراهيم!!
- إنني أعرف آلافًا بنفس الاسم.
- إن زوجته تائهة.
- الكبار أيضا يتوهون سيدي الحاكم.
- هات الصورة.

جزم إبراهيم أنها صورة زوجته، ونظرني بغيظ، وأراد أن يطبق على عنقي. وقال الطفلين.

- ماما.

دخلت امرأة مربوطة بشاش وقطن، لا يظهر منهـا إلا الكف والعينين. خاطبها حاكم المدينة.

- من أنت؟!

- لقد كنت في المستشفى لمدة يومين، وقد وقعت مـن الكورنيش. وأنا أهبط السياج الحديدي، ولم أفلح فـي تذكر شيء بعد ذلك.

ونظرتني جيدا. لم أعرف امرأة بهذه الصورة، وبكـت، ونظرت للرجل الآخر، والطفلين، وتبسمت قليلاً: قطع حاكم المدينة صمتنا جميعا.

- أهذه صورتك؟!

- أين حقيبتي؟!

واحتضنت الطفلين بلهفة، وبكت بحرقـة، وحضـنهما إبراهيم أيضا، ونظرني بغيظ، لكنه زفر زفرة حارة، وقبـل أن أمضي قلت لنفسي، والملف قد اشتعل من تلقـاء نفسـه

أمامي وأمامهم، ولم يسألني حاكم المدينة عليـه: (سـيدتي، ها أنا أنتصب أمامك، أحني هامتي إجلالاً لذاك القلب الـذي احتواني، وهذا الجسد النوراني، الذي يجعلني أجـزم بـأني الرجل الوحيد الذي يمتلك جوهرة. ها أنا سيدتي أعلن. أنـي رماد الكون، وسر التكوين. وها أنا أبحر بمجداف يعلو فوق الصدأ، الذي جعلني قديما أتحسس وكر الأنثى المتعفن، أنـا لا أطلبك لجسد قد شاخ في حضن الأنثى التي تستنزفني.

- سيدتي. ها أنا ألتحق بكوفيتك التي غزلتيها فـي أي أرض أو سماء، أو حتى عاريا لا يهم. كم كنت تواقًا لك. وها أنا أعلن في الملأ توبتي، والكف عن البحث إلى الأبد.

قال البائع البشوش لحاكم المدينة:

- إن هذا الرجل، وهـذه المـرأة المربوطـة، والتـي صورتها بيديك الكريمة كانا على الكـورنيش، وقـد سمعت صرخة عظيمة لارتطام جثة ما، لكني حـين وجدته وحيدا، وبيده حقيبة يد صغيرة أدركت أن..

قاطعه حاكم المدينة بصوت عال:

- يجب أن أردم ذلك البحر، وأهدم الكـورنيش. إنـي أخاف على زوجتي وابنتي.

* * *

نزلتُ إلى شوارع المدينة، فالتهمني السوق الكبير.

* * *

كانت هنا مدينة ببحر، وشـجرة لبـائع، وكـان هنـا كورنيش. وكانت هنا أغنيات تتردد فـي جـوف المدينـة، وجوف الناس، وجوف البيوت. آسف لأنه قد كان.

ظـل لرجـل

(بيتك هو الملجأ الأخير يا خالة) وكانت الخالة تسـعى إليه، وتضمه إلى باحة الدار بجوار الشجرة المنزرعـة فـي وسط الدار. كثيرا ما تغاضى عن أشـياء كثيـرة تزعجـه، وتؤرقه، اليوم وقد رضي بالمقام تحت جذع الشـجرة عنـد الخالة التي تنزوي بعيدا. في ركن قصي. ما أجمل باحة دار الخالة!! ما أجمل الخالة، حينما هوت بحنانها فـوق رأسـه، فامتلك كل مساحات الود التي تغيب عنه، حينما تغيب قدمـه داخل شقوق قربته.

- تأكل يا بسطويسي؟!

ووضعت بجواره بعضا من الثريد، وطيبـت خـاطره، حتى أتم أكله، فأمسكت يده بكل الثريد، وألقمته فمه الواسـع، حتى انتفخت بطنه، وراح يبسط جسده تحت جذع الشـجرة، وانتهى إلى النوم، حتى وقت الغروب.

كيف جرى، هو الحافي القدمين كل هذه المسـافة مـن بداية القرية حتى دار الخالة، التي تبعد مسـافة تزيـد عـن خمسة من الكيلومترات؟! ولما لا، وهو السباق دومـا إلـى الحانات، والمآتم والأفراح، يقولون عنه: (إنه أعرج) وجـزم من قال لي: (إنه برجل واحدة) كانوا يريدونه حيا، أو ميتـًا، فأدرك على الفور وقع الحوافر والسلاسل الحديدة، فجـرى، وقفز، حتى ارتفع عن الأرض قليلاً.. قليلاً، وجزم لي مـن شاهده طائرا في ذلك اليوم، قلت له:

- وعلامة ذلك؟!

وهو ثقة، قال:

- كنت أبحث عن شيء مهم، فأخبرني وهو طـائر أن بطني قد سرقتها أم فلان، وهي في الطريـق إلـى البيت الآن. نعم ذكر اسمها لي، لكني أخفيـه نظـرا لقرابتها لي.

* * *

هي الخالة تعرف ما به.. لكنهـا الآن وجلـة، تخفـي جزعها مع ضوء الشفق الذي تبدد الآن، حين ينتهـي آخـر ضوء للشفق، تعلن جزعها، هي التي اعتادت وحدتها. هـي

الآن مع رجل. ماذا يكون بين رجل وامرأة، ومساحة خالية، وظلام يستر الأجساد؟! لا شيء إذن. أفاقـت الخالـة مـن شرودها، وكانت على وشك أن تتحسس أعضاءه، وهو قـد أحس بأنفاسها قريبة، فاعتدل قائما.. فزعا، فمسـحت علـى رأسه، فاطمأن إليها، ودعاها أن تحكي له حكاية، ففرشت له حجرها، وأودعه رأسه أمانة في حجرها، وهي تبعث أناملها بين ثنايا شعره، وأحضرت جلبابا.. قديما، وقطعت منه قطعة عملته منديلاً.

قالت:

- كان فيه رجل ملء هدومه. مثلك الخـالق النـاطق، ويخلق من الشبه أربعين.

اكتمل نموه في الشهر السابع، وهو في بطن أمه، فخبط على جدار بطنها من الداخل بقوة، حتى أوجعها، قالت أمه:

- ماذا تريد يا بسطويسي؟!

قال وهو في بطن أمه:

- ضقت ذرعا بجدران بطنك، أود الخروج أولاً.

- انتظر، حتى يكتمل نموك.

- ها أنا أسمع، وأرى، ماذا أنتظر إذن؟

- أكمل ناموسك، حتى لا يعيرنا الناس بك.

فلم يرد، وخبط على جدار بطنها من الداخل بقوة. حتى أوجعها، فلم تجد أمي مفرا إلا الانصـياع لخروجـي، وقـد وسعت لي طريق الخروج، وهي تبكي، وتشد شعرها، حتى رآها أبي نصف صلعاء. امرأة نصف صلعاء، مـا أجملهـا لرجل مثل أبي!! أخرجت رأسي. وتلفت يمنة ويسرة. مسك أبي مسوقة غليظة، وقال:

- إذا خرج بسطويسي الآن سأدق عنقه أمامكم جميعا. ويجب أن يسمع كلامي.

فرجعت إلى بطنها ثانية فزعا مما رأيت، ورأيت أمـي تزرع شعرها الذي سقط، وأصبحت جميلة كما كانت.

* * *

اكتملت صورة أمي في عيني بعـد الأربعـين يومـا، فمسكت ثديها، وقد جفّ مما فيه، فقالت أمي، وقد قبلتني بين عيني.

- اجعلني بجانبك.

فقلت:

- لا حاجة لي بك.

فمضت تهرول حتى الجبانة، وألقت بنفسها داخلها، وقد قفلها أبي، وقبل أن يقفل عليها باب الجبانة، قالت لأبي:

- قد تركته وحيدا مع الجاموسة الوحيدة في الدار، وهو في اللفة مازال استعضت عـن ثـدي أمـي بثـدي الجاموسة.

قال أبي بعد مدة قصيرة.

- ألك حاجة في الجاموسة يا بسطويسي؟!

وقبل أن يسمع ردي، سحبها إلى السوق، وبدلها بأوراق تزين حافظته، قلت وهو ساحبها إلى السوق.

- ما زلت تعترض طريقي. اذهب بها إلى الجحيم.

ولم يرجع أبي منذ خروجه إلى السوق، ولم يسأل عني. لو كنت أستطيع أن أمنع خروجه كمـا منـع خروجـي أول الأمر قال قائل: (قد جذبته الأوراق، وبدأ يقلدها، وساح فـي البلاد) وقائل قد قال: (لم يعد من السوق حتى الآن) وآخـر قال: (قد مات وهو في حضن غازية، ودفن مع الغجر).

ها أنا وحدي، ولي بيت يحميني من السكك، يجـب أن أعتمد على نفسي. قال الشيخ شلتوت.

- أربيه.. يتيم.

وسكن في البيت، وباعه لحامد أفندي ـ الساكن الجديد الذي استقر ببلدتنا ـ بعدما نسي الناس أمري، ولـم الشـيخ شلتوت أشياءه، وعاد إلى بيته القديم، وحين حاولت الـدخول معه ـ فأنا من جملة أشيائه ـ ربط كلبا قد جاع منذ ليلتـين بمدخل الدار، مسكني الكلب، وشبع من لحمي، وكلما يرانـي الكلب، يود أن يقضم من لحمي الشهي، فهربـت مـن كـل الكلاب الموجودة في البلد، وكان الشيخ شـلتوت يـدعوني للدخول، والكلب جائع.

عاتب حامد أفندي ناظر المدرسة الوحيـدة فـي البلـد الشيخ:

- أتبيع دارا ليست لك؟!

فما لبث الشيخ أن قال:

- بعتها لأصرف عليه.

قربني حامد أفندي إليك، ودعاني للدخول.. لكنـي لـم أدخل داري، فقد تغيرت معالمها، واكتفيت بـالجلوس عنـد

عتبة الدار. وكانت ابنته سارة تلعب معي. دخلت سارة الدار، وخرجت حاملة كتابا، ووضعته أمامي، وقالت لي:

- اقرأ.

وقد سمع حامد أفندي بما دار، وقرر أن يأخـذني إلـى المدرسة، وشاهدت صورا كثيرة، وقالت لي سارة:

- ارسم.

فرسمتها على الأرض واضحة.. جلية، وعلمتها الرسم حينما قالت: (علمني) فرسمتني مشوها. لا يهم.

أخذني حامد أفندي إلى المدرسة، وكانت بجواري سارة، وكان مغموما، فقلت له:

- لا تحزن. سآتيك بطبق ملوخية من أي مكان.

فتعجب حامد أفندي، ووقف مذهولاً، وقالت لي سارة:

- إن أبي قد تعارك مع أمي لأجل عمل الملوخية.

فأمسك بي، وألقى بي في الشارع قائلاً:

- لا علم لك عندي.

أقف يوميا أمام داري (امش من هنا) يقول حامد أفندي، هي داري، بها أمني. أمسك بعصا غليظة، وظل يضـرب،

وأنا فقط أنظر لسارة، وحين أحس بدموعها، أتوجع، وأظـل أدمع حتى تختفي. قالوا له:

- اربط كلبا أمام الباب.

وجوع الكلب أياما كثيرة، وأنا لا أقف أمام الباب، مـا دام الكلب واقفًا، وحين رأيت سارة واقفة مع حامـد أفنـدي على عتبة الدار، لوحت لها، فأطلق أبوها الكلب، وهرولـت، وظل الكلب ورائي، حتى مات من شدة الجـوع والعطـش، فعدت أرسم سارة على الأبواب، وفي الطرقات، حتى شـاع خبرها، وكان قد رآها ابن الشيخ شلتوت.

أمم دار حامد أفندي، وقفت، وإذا بالشيخ وابنه يدخلان، وحيدر وابنه منصور، وآخرون، رأتني سـارة، فتبسـمت. وسحبتني للداخل، وقد رحب حامد أفندي بـالجميع، وحـين رأوني وقفوا، فقلت قبل أن ينطق أحدهم.

- أريد سارة.

وقالوا مثل مقالتي، فانتحى الشيخ بحامد أفندي جانبا، ثم رجع حامد أفندي وقال:

- نعمل سباق في الجري، والعصا السابقة.. سابقة.

وربت على كتفي، وابتسم كل الحاضرين.

زرعوا في طريقي شظايا زجاج، وعظامـا مكسـورة، وروث البهائم، وغسيل البرك.

في منتصف الطريـق بعـدما نزفـت دمـي، أوقفـت المتسابقين، وقلت:

- من فيكم أحق مني بها.

قالوا جميعا:

- أنا.

فوضعت بيد كل واحد منهم صورتها عارية.. مغزولـة على قماش، فلم يبرحوا مكانهم، مبهورين بالصورة، فقطعت شوطي إلى النهاية، وكان حامد أفندي والشيخ في انتظار أي منهم إلا أنا، قالا معا لي:

- يجب أن تؤكد فوزك مرة أخرى.

وتركوني أنزف وحدي على السكك.

قالوا:

- هيا.. اليوم موعدك.

بجوار النهر التم خلق الله.

- اخلع ملابسك.

- لا أعرف العوم.

- سيغطس طالبي سارة، والأطول نفسا هو الفائز.

قلت بأعلى صوت، وقد سمعتني:

- لأجلها أربط حجرا فوق ساقي.

لكنهم أتوا بكل الحجارة الموجودة في البلـد، وربطـوا قدمي اليسرى، يجب أن تستمر تحت الماء أكبر فترة ممكنة، بعد ثلاثة أيام، أردت الخروج. الحجارة ثقيلة، انتظروني لمدة ساعة في اليوم الأول، ثم قالوا: (مات) خلعت ساقي اليسرى بحجارته المربوطة فيه، وعدت إلـيهم فتعجبـوا، وقـالوا: (شيطان) فانطلقت البلدة كلها ورائي، وكـانوا علـى وشـك اللحاق بي لولا أن نبت لي فجأة جناحـان. فطـرت، حتـى وصلت إلى نقطة لا يصل إليها أحد، فاسترحت قلـيلاً، ثـم رسمتُ سارة على تراب الأرض بحجمها.. كأنها هي، ونمت فوق الرسم، والتصقت به، فسمعت (خف يا بسطويسي مـن طين الأرض) وقد سمعت توجعا بنشوة.

* * *

سحبت الخالة منديلها، وظلت تبصق، وتجفف دمعهـا، وكانت هي التي تنام فوق حجره، وهـو يـداعب شـعرها

بأنامله، وحين قامت تبحث عنه، تذكرت أنه اختفى منذ فترة بعيدة، وكانت هي تنشد حكايته للمرة الألف، والمرة الوحيدة التي رأته قبل الاختفاء البعيد، جزمت أنهـا رأت احـدوداب ظهره، وقدمه المقطوعة.

طلع النهار، وحين رأت الخالة سارة، وهي حامل على آخرها، قالت:

- خلي بالك من بسطويسي الصغير.

وكان بعض العيال يجرون وراء سارة.. لكـن سـارة ظلت لا ترد، حتى اختفت هي الأخرى، وكانت الخالة تشغل نفسها حتى الشفق، ثم تبحث عنه، وتنام تحت جذع الشـجرة في باحة الدار، حتى تنشد حكايته مرة أخرى.

ذراع يحمل الفاكهة

- دثريني.

ولم يكن يحلم إلا بدفس جسده كله تحت غطاء الـ دفء، فأودع جسده أمانة ليد اللحاف، ونام تحت طراوته، وقد شده حتى صم أذنيه عن الدنيا، وكان قد دخل على زوجته حاملاً برودته في هذه الليلة.. لكنها حين رأته داخلاً لا يحمـل أي شيء ـ وهي التي تعودت منـه أن يـدخل بكيسـين مـن الفاكهة ـ بدأت تسخن دمه البارد.. لكنه ظل تحـت غطـاء الدفء بلا حراك، صامتًا، وعازفًا عنها. قالت:

- لا فائدة فيك.

ساعتها فقط: أدرك سباب زوجته له، ولأبيه الذي تـدثر بالتراب، وعيرته بما يملك في هذه الدنيا، وإن الرجال الذين يملكون ما يملك أصبحوا في (العلالي) وقالت:

- خائب.. طول عمرك خائب.

- أملك الكثير يا امرأة.

وحاول أن يرفع إحدى يديه ليلاطمها - هي الشـتّامة - فمسكت ببلاطة حادة، وقطعت ذراعه.. صـرخ فيهـا، وفـي نفسه، وارتدى سترته تاركًا زوجته تغلق كل الأبواب أمـام وجهه. أنا أملك الكثير يا امرأة، وغدا سترين.. لكنـه حـين رأى ذراعه المقطوعة، وتحسس موضعها، بكى.

* * *

حمل ذراعه، وسار في هذه الليلة الباردة، يبحث عـن مأوى، يدفس فيه جسده كله تحت غطاء الدفء، أخطأت حين تركت البيت، كنت أملك الكثير. ذراعي مقطوعة، وأنا فـي الشارع. كنت يا زوجتي تتباهين بـذراعي أمـام الجيـران. أعرف ذلك جيدا. لا فرق بينك وبين أي امرأة الآن. لا أطيق حمل ذراعي المقطوعة. نعم، لا أطيق. ارمـه، واسـترح، وامرأتي ماذا أقول لها؟! قل لها أي شيء. هـي الآن تحكـم غطاء الدفء فلا يتسلل البرد إلا لي. آه، لو يأتي أحد أتسامر معه لأنسى ذراعي والبرد!! ظل هكذا مدة يبتهـل للبـرد أن يترك عظامه. حينئذ فقط. أدرك أن برودته جـاءت نتيجـة ما يحمله - ذراعه - والذي تتباهى به وزوجته. وسـاعتها فقط، أعلن على الملأ: أنه سيترك ذراعه لأي عابر سبيل.

حين رآني قادما، قابلني بترحاب، وأثنى علي، وكنت قد حييته بأكثر من تحية، عسى أن يتركني ـ في هـذه الليلـة الباردة ـ أرجع لأولادي، وحلف بأغلظ الأيمان أن أتسـامر معه، حتى تنتهي هذه الليلة الباردة. رفضت باستحياء.

- أم أولادي تنتظرني.

- إذا كنت مستعجلاً، خذ هذا، وأرحني منه.

فقررت أن أرجع لأولادي حاملاً أي شيء. ترددت وأنا أمد يدي إليه.

قال وهو يربت على كتفي، ومستعطفًا إياي.

- خذه لك.

ومضى في طريقه الذي تعود السير فيه.

لم أتعود من هذا الرجل ـ وأي رجل ـ هذا الفعل أبدا. ربما قد أحس بحاجتي أن أسد عين زوجتي. ربما قد يكـون غاضبا هذه الليلة.. لكني سأدخل على أولادي بشيء عظيم.

* * *

عاد الرجل بدون ذراع، وبعد انقضاء الليلة الباردة إلى البيت، وهو خائف من زوجته، فوجدها على الباب منتظـرة توددت إليه عسى أن يغفر لها زلتها.

اطمأن إليها قليلاً، وطلب قبلة، لم تحس بنشوة، فجزمت أن شيئًا قد تغير، فظلت تمعن النظر فيه، وكـان قـد فـرد ذراعيه ـ ذراعا واحدا ـ لتدخل في حضنه، فدخلت.. لكنها قد تركت ذراعه المقطوع، فسألته:

- قد تركت ذراعي لعابر سبيل حتى لا يحـدث بيننـا مكروه.

فلطمت خدها، وشقّت جيوبها، وتعرت أمام الجيـران، وأحست ببرودة تسري في عروقها، وجيرانها ينظرن إليهـا مليا، وهن ضاحكات.

* * *

لففت ذراع الرجل بورق، وعدت للبيـت. وحـين رأت زوجتي ما أحمله، قالت:

- يا ما جاب الغراب لأمه.

- العين بصيرة، واليد كما تعرفين.

وفتحت اللفة بلهفة. هـذا ذراع إنسـان. لا يأكـل، ولا يطبخ، ما فائدته إذن؟! وقد فرح أولادي لحظة، ثـم نـاموا مرعوبين، زوجتي قالت:

- أرجعه لصاحبه.

فدخلت الغرفة، وقفلت بابها، وخلعت ذراعي، ووضعت مكانه ذراع الرجل.

* * *

نزلت بعد يومين سوق (الروبابكيا) أبيع ذراعي، فلـيس لي به حاجة الآن، وقد استبدلته بأحسن منه، وجلست علـى قارعة الطريق.. بداية السوق. ينظرني المارة. الذراع جيد. نعم. جيد. ما لهم لا يفهمون. وقف واحد، اثنان. مائة أمامي يطلبون شراء الذراع، يلصقونه، لا يلتصق، فيمضون لاعنين كل أصحاب الأذرعة.

حين رآني صاحب الذراع، تهلل وجهه، وقد استبد بـي الخوف.. لكني أيضا فرح، فقال:

- أين ذراعي؟!

- في الحفظ والصون.

وقد رأى الذراع ملفوفًا بالسلوفان الأحمـر عسـى أن يشتريه أحد حاول لطمي، فلم يقدر.. لكنه صرخ، وقال:

- أتنزل السوق لتبيع ذراعي يا كلب؟!
- ذراعك جيد، وزبونه لم يأت بعد. انتظر.
- أعطني ذراعي.
- صدقني لم أعرف لك بيتًا، أو اسما.

وأعطيته الذراع، فوضعه مكانه، أحس أنه خفيف.

- لقد سرقت جزءا منه.
- خس من البرد والتداول يا صاحبي.

ورأى ذراعي طويلاً.. أطول من اللازم.

- هذا ذراعي.. أعطه لي.

وأشار إلى الذراع الطويل.

- قد أهديتني إياه، والهدية لا ترد.
- لكنه لا يناسبك.
- ولو!!
- لكني أريده الآن. وإلا.

فخلعته، ووضعت ذراعي القصـير مكانـه، وقبـل أن أمضي. قال:

- قف لأجربه. ربما قد أصابه عطب.

حاول أن يجربه يمنة ويسرة. أحس أنه سـليم وجيـد. فشتمني.

- احفظ لسانك كما حفظت لك ذراعك.

فرفع ذراعه ولطمني، وظل يلطمنـي حتـى انخلعـت رقبتي، وسقطت من جسـدي، وقـد رآنـي رجـل آخـر، فاستعطفه.. لكنه ـ أيضا ـ ظل يضرب الرجل الآخر الذي حاول مساعدتي، ولو بنظرة، حتى سقطت رقبته أيضا. حمل الرقبتين، ووضع كل رقبة في كيس، ودخل على زوجته في بداية الليل. وحين رأت الكيسين، قبلته، وظلت تلتهم رأسـينا بنهم، وقد أدركنا لون سترته التي يرتديها. نعم، قـد أدركنـا فعلاً لون سترته التي يرتديها.

نشرت بجريدة أخبار الأدب

العدد ٨٣ فبراير ١٩٩٥ م.

انتظـــار

تعود أن يرمي هدومه في أي ركن.. بعيدا عن جسـده، فيحس بارتياح، ويقفز كفراشة، ويحلق فـي غرفتـه، قـافلاً إياها، حتى لا يقتحم عليه أحد خلوتـه، فيضـطر لارتـداء ملابسه مرة أخرى ما أصعب ذلك على نفس قد تعودت على هذا!!

هذا فعل الأجداد والآباء فينا، من خرم الغرفة الوحيد ـ خرم المفتاح ـ تتلصص عليـه بنـت. أو بنتـان. وكثيـرا ما دخل عليه بعض الناس من ذوي الشهامة والأصـدقاء ـ في أوقات متفرقة ـ يتفرجون على جسده العاري، المستلقي في أي مكان.. على السرير، أو أرض الغرفـة (مـا أروع الجسد!!) هكذا يقولون، ثم يمضون مترهلي العيون والآذان، والبنتان الصغيرتان ـ لما لهمـا مـن محبـة خالصـة ـ تتحسسان بعض الأماكن قالت واحدة منهمـا للأخـرى فـي لحظة ما: (أتمنى أن يكون لي) لم أعرف حتـى الآن أنهـا

تقصد هذا الجسد فعلاً، أو غيره. وقامـت قيامـة الصـبابة والوجد، ونزعتا عن نفسيهما رداء التمنـي اللعـين الـذي لا يجدي، وتشابكتا بالأيدي، فقام مفزوعا، ولم يجـد شـيئًا يستره بعد ذلك إلا قفل غرفته من الداخل.

* * *

بعد أن افتضح أمره، وأمر هذا الجسـد، وضـعه فـي سروال أو بنطال وقميص. وظل هكذا مدة من الزمن سجينًا لملابسه، حتى جاء صيفه المحبب، فخلع ملابسه على غيـر إرادته وبشوق، وتمـدد فـي أرض الغرفـة ناسـيا أمـر الصغيرتين، بل تشجع ولم يقفل الباب من الـداخل. وتعمـد كثيرا أن يوارب الباب.. لكن الناس قد انشغلوا عنه، وتركوا له جسده قانعين بما لديهم.

* * *

الغرفة واسعة بعض الشيء.. في الزاوية اليمنى سرير نحاس، ينفعل باهتزازات الجسد، فيسمع منه أنينًا.. متوجعا، وبجوار السرير منضدة صغيرة تتناثر عليها بعـض الكتـب الصفراء وكرسي يبدو لأول وهلة أنه عتيق، ودولاب يحشو فيه الملابس المهترئة، وبنطال وقمـيص جديـدان، ومـرآة

عريضة تزين مدخل الغرفة، حين تحاول النظر فيهـا يرتـد النظر إليك خاسرا، وحين تدقق أكثر في المـرآة عسـى أن تصيب منها شيئًا، أو تجد صدى لأي صـورة، فلـن تجـد إلا بقعا سوداء، وخلف الباب بعض المسامير المدقوقة فـي الجدار يعلق عليها ملابسه.

* * *

قبل يومين أو أكثر، اكترى حمارا من السوق (ماذا تفعل بالحمار؟!) كانت النظرات والكلمات تصوب إليه (لنـا رب اسمه الكريم) هكذا كان يردد عالي الصوت، وكان قد ارتدى ملابسه المهترئة، ولف رأسه بعمامة، وأرخاها على كتفيـه. اشترط عليه البائع أن ينزله حيث شاء لأن الجسد قـد شـاه، فمال به حيث أراد منشرحا، وقد وجد ابتسامته المخفية فـي عين حماره، وأسرع المشي حتى أكلت الأرض نعله، وقـال له: (أتعبتنا) فقال له الرجل: (انزل) فنزل حيث شـاء، فـإذا خرابة كبيرة.. ممتدة ومسورة (ادخل) فلم يزل الرجل يطيب له الدخول حتى وجد ـ وهو على باب الخرابة مـا زال ـ أجسادا عارية يلسعها سوط الشمس فـلا تتململ، فأعطـاه الحمار، وهرب بجلده، حتى استقر بغرفته.

على شاطئ البحر، يظل يدور عاريا لا يزعجه أحـد. الأجساد هنا عارية، كان في البداية فقط يظل يمعن النظر في أجساد النساء.. لكنه الآن قد احتفظ بكل التقسيمات الملعونـة داخل جمجمته، على شاطئ البحر فقط يظل يـدور عاريـا لا يزعجه أحد.

* * *

كان يجب أن يتخلى عن هذه العادة إلـى الأبـد. هـذا ما وجدنا عليه آباءنا، كيف وقد تعود عليها منذ فترة طويلة؟! لم يمنعه شيء حتى الآن عـن إظهـار هوايتـه إلا بعـض المناسبات الكريمة.

* * *

أنا جاره الذي يسكن بجوار غرفته، أينما يسـير فأنـا وراءه. لست أدري سببا لذلك. ربما أكون شـغوفًا لدرجـة الجنون بأي جسد، ربما. أو ربما قد نظرني مرة ذات صباح نظرة قد خلعت عني ملابسي. هذا الخيط من الجنـون هـو الذي يربطني به.

* * *

يتلصص عاريا، وعلى أطراف أصابعه، ويستتر بظلمة الليل، فلا يلمحه أحد وهو داخل إلـى دورة الميـاه لقضـاء حاجته. هل يخاف الليل، أم يخاف من أن يلمح جسده أحـد؟! أيخشى الناس بالليل فقط؟! عين النهـار فضـاحة، يـواري سوءته بملابسه المهترئة، هل يدرك أن عيون النـاس هنـا تلمحه كلما غدا أو راح؟! لا يعني هذا بالضرورة أن يتخفـى من الناس، أو يخفي شيئًا كجسده، يستطيع الأعمى أن يعرف موضعه، لا أحد يجزم أنه مع أو ضد. سـمعته مـرة وأنـا أخطو خطوة خارج غرفتي في بداية سكني لهذه الغرفة: (إن تركت الناس، لا يتركوك).

* * *

البارحة فقط، نظرني جيـدا، وخـبط بقدمـه موضـع غرفتي، ففتحت له الباب منشرحا على غير عـادتي. قـال: (هل أجد عندك؟).

ولما رآني منشرحا على غير العادة، ولم أدعه يـدخل، خطى بخطواته الفقيرة عائدا. وقبل أن يدخل، التفـت إلـي. لكني أجزم أن بعينيه كانت تتكور بعض الحصـى. أمسـكها قبل أن ينفرط عقدها، ولم تنحدر دموعه إلا حينمـا أصـبح

وحده داخل غرفته، فكانت حصوات عينيه تقـع فـي أرض الغرفة، فأسمع لها ارتطاما يوشك أن يفقدني القـدرة علـى الكلام أو التركيز، غير أنني في هذه اللحظة، كنت أشـتهي فقط البكاء في حضنه، يا إلهي!! لم أتعـود منـه مطلقًـا أن يخطو إلى غرفتي في أي ساعة من ليـل أو نهـار. ليسـت غرفة جيدة على الإطلاق. هذه حقيقة. كيف نسيت أن أدعوه للدخول، وهو السباق إلى قرع باب غرفتي؟! كان يجـب أن يدخل ولو غصبا. هذا الرجل له من الأنفة والعزة ما يجعـل الناس تخشاه. آه. لقد تذكرت. لقد رأيته يحك جلده بيديه.

* * *

في منتصف ليل اليوم، سمعت توجعا، فاستطلعت الأمر، ووجدت كثيرين حول بابه وقد ترك باب الغرفة مفتوحـا ـ ليس بإرادته ـ لأنه كان مشغولاً جدا هذه المرة، ولم يكـن خائفًا، ولم يشعر بأحد، فقد بدأ ينهي هوايته إلى الأبد. كـان يحك جلده، ولحمه بقوة، ويظفر بهما، ويضعهما بجواره على السرير، أو أرض الغرفة، حتى باتـت عظامـه هـي كـل ما نرى، واستراح في نوم عميق، لعله قد استراح في نـوم عميق. وظل هكذا مدة. لم يقدر أحد أن يزعجه، أو يتلصص

عليه، حتى دخلت بعض القطط الضالة تنشد جلـده ولحمـه دون أن يقول لها كلمة، وقد باتت رائحة الغرفة نتنة إلى أبعد حد، فأبلغنا الإدارة الصحية، ووقفوا أمام غرفته أيضا بإجلال واحترام، وسكبوا الكيروسين، وأشعلوا في غرفته النار، حتى أتمت النار عملها المثير، استرحنا قليلاً، وفرحنا، وقد قفزنـا كالصغار على نحو ما، وأنه قد بات لنا أن نكون غير خائفين هذه المرة.

في هذه اللحظة بالذات، ابتدأنا نعاني هوايته، واسـتلقى كل منا عاريا تماما في غرفته، منتظرين النار التي أفرحتنا.

ورقـــة

نظرت إليه من أسفل قدميه إلى شعر رأسه، ثم تقابلت بعينيه العسليتين، طرحته أمام المأذون، لما رأته يمسك عنزته برباط أكيد، ويربت عليها.

- هل ترتضينه؟!

نظرته وعنزته، فاصطكت أسنان القلم الوحيد ببرد تلك اللحظة، ثم سلمه المأذون ورقة مسطورة بخطوط سوداء.

رنت زغرودة ملأت فم الشارع ببسمة وهما على بداية الشارع العمومي الموصل لبيتهما، ثم وقفت بلا حراك حين مأمأت العنزة، قالت:

- إما أنا أو العنزة.

ثم صمتت حتى أثمرت حروفها أُكُلها، ورائحة الشواء تسعدها، وكان قد تبسم في البداية، ثم قال:

- إني تعبى ومنكودة. هذه ليلة زفافي يا رجل.

فصنع لنفسه ذيلاً، ونهق ليضحكها. لكنها قـد خلعـت ملابسها، وصنعت لجاما ألجمته به، وقالت:

- سر.

ولما استقرت فوق ظهره، كانت تترنم (ورقـة الرجـل لي)، ثم لفت بها جسدها كله، وحين انتهى من لعبته، ووقف أمام بيته، أراد أن يتأبطها، كانت خشخشة الورقـة تباغتـه، مدت يديها قائلة حين هم أن يضاجعها.

- أعطني ورقة أخرى.

* * *

ساق فرحته أمامه، وجرى صاعدا هضبة عالية. رجـل ذو عباءة، لحيته بيضاء وشعره أيضا، وأصـابع يديـه ـ ـ مهترئة ـ ترتعش، خرج توا من تلك الهضبة، وقال للصاعد الهضبة.

- انتظر.

وفرد عباءته لدرجة أن العباءة قد حاصـرت الصـاعد الهضبة، ولم ير إلا ظلال تلك العباءة، قال ذو العباءة:

- أنت الذي أريد. قد وفقني الله أن قابلتـك فـي هـذه الساعة.

يا لك من محظوط!! لماذا تجري؟!

- أبحث عن ورقة.

- ....

* * *

جلست تحت الهضبة العالية منتظـرة نزولـه، وحـين أدركت أن الورقة التي كانت تستر بها جسدها قـد اختفـت، ولما أدركت أنه لن يعود، أخذت تلم أوراق الطريق عسى أن تستر جسدها.

زغـــرودة (*)

أوصدوا الباب، ولم يدخلوا، وقد ظلـوا علـى نقـرهم للباب، وقد خمش الحزن بأظافره ملابس النسوة فبدلها امتثالاً لذلك المشهد.

(لبست عيوني صحـوها بعـدما هزنـي نقـر البـاب المتواصل، فقمت).

لن أقف طويلاً، أين مني الوجوه؟! وكانت أقفيتهم هـي التي أراها، ما من خبر قبل الآن يجعلني متيقنًا من دخـولي. قابلني الرجل الذي بداخل العنبر مرحبا، وقد حياني بابتسامة عريضة. نظرت الواقفين أمام الباب، فوجدتهم قـد غيـروا وقفتهم، وأصبحت أقفيتهم هي التي أراها.

رخامات تعلو عن الأرض قليلاً، فـوق كـل رخامـة صنبور ماء، ومصفاة بوسطها رائحـة الفينيـك وكولونيـا الليمون وروائح أخرى يحملها النائمون على تلك الرخامات.

إكراما لي فتح صنبور الماء، ودعك الجنـب الأيمـن؛ فالأيسر، وحمله على القيام، وثنى العمود الفقري، وضـغط بكلوة يديه على البطن.. قريبا من السـرة، فنـزت الفتحـة التحتانية ببقايا، ثم غسل الحـوض كلـه، اسـتر عـورتي، فسترها. صدري عريان، فألبسه قميصا، ثم جلبابـا، وزينـه بعباءة. أقعدني، فأقعده. ائتني بمداسي. لـيس لـك مـداس. احملني حتى ترفعني عن الأرض، ففعـل. اسـندني حتـى أمشي.

قال لي الرجل الذي بداخل العنبر.

- أيهما تخصك.

حاولت التعرف على إحـداهما، فمنعنـي. لا تمنعنـي أرجوك، ثم قلت: (حادي، بادي سيدي محمد البغدادي)، لكني خلسة تعرفت على العينين فقط.

- هذه.

ووقعت على استلامها. وحين تأكد لي أنهـا تخصـني، أعطيته ما جاد به حزني، ورفعت الغطاء، ومسكت طـرف القماش الملفوفة بها، وحين دحرجتها قليلاً. انزلقت سـريعا من فوق الرخامة، وللصدفة أن الباب كان مفتوحا عن آخره

في تلك اللحظة، فلم تصـدم، واسـتقرت ـ أعتقـد ـ فـي الطريق وشددت القماش منفعلاً وبسرعة، فانفك عن الجثـة تماما. يا للهول!! الجثة عاريـة الآن، سـيعايرني النـاس، وركضت أجري مخافة أن يسبني الناس. وحين وقفت علـى الباب، نظرت يمنة ويسـرة، وأنـا الوحيـد الخـارج مـن المشرحة، فلوحت لهم بما في يدي، كفن. مئزر. ثوب جديد، وقلت:

- أين الجثة؟!

فسمعتُ زغرودة.

(*) نشرت بمجلة الثقافة الجديدة
العدد ١٢٤ يناير ١٩٩٩.

علاقـــــة

لم يكن هناك بد من عرضها بشحمها، ولحمهـا علـى شيوخ دأبوا على تربية الجسد المسكون.. كـانوا يضـربونه بخيزرانة.. تلك وسيلتهم لإبعاد الساكن في مقـام الجسـد.. وكان آخرهم الشيخ شلتوت.

تتكرر الغيبوبة التي يفقد فيها الجسد أصـول خشـوعه المتعود عليه أمام الناس، فيحدث أن يبتل الجسد بارتعاشـات حرة، كأنما في الحقيقة يمارس فعلاً شهوانيا.

شيخ وعفريت وجسد بينهما يتلقى ارتعاشـات الجنـي الساكن فيه.. وشيخ بعد لحظة قصيرة، وفي نفـس الوقـت، يلقن الجسد لغة الخشوع ويخط بخيزرانته على الجسد غرفة لسجن الجني، الذي يضيق عليه الحصار.

كانت مشاعرها هشّة وضعيفة.. لا تقوى على شـيء.. هي بين شيخ وقور تقدسه النـاس. وخيزرانتـه السـحرية، وعفريت لا مرئي بسبب تلك المتاعب.

هو الشيخ شلتوت الذي تعود أن يخاطـب اللامرئـي. يعرفه كما يعرفنا، ويعرف آباءهم كما يعرف آباءنا، ويسميهم بأسمائهم وأسماء عائلاتهم.. له شواهد الأشياء، ومـا خلـف النظر والمحسوس.. وهذا الجسـد خرافـة زمنـه، ولعنـة المحيطين به، ولغة الشيخ الجيدة التي يفقهها منذ تعلم القراءة، ومنذ أن حط راحلته عند مدخل قريتنا.

كانت حماتها تجاب لها في أوقات متفرقـة - لـيلاً أو نهارا - شيوخًا أو نسوة، يعملن لها زارا، ويـتحلقن حـول غرفتها المنسية منذ عرسها، ويترنمن بصنوف شـتى مـن أدعية، ورجاء أرضي أو سمائي.

كانت في بعض الليالي، تتمنطق بحزام عريض، أسود، وجلباب، أبيض، نظيف.. وتضع بجانـب عينهـا اليسـرى حجاب الشيخ شلتوت، وتستحضـر مـن جوفهـا نغمـات راقصة.. موحية، ينفذونها آلاتية يعملون في الأفراح.. وكان

تحت جلبابها لحم، أبيض، بض، معروق بفعـل ارتعاشـات المجون الخفية.

كثيرا ما اجتمع العفريت والشيخ بغرفتها المنسية، ناسين الزوج الذي ملّ اللعبة، وطلقها آخر الأمر.

كان لها شيخ يواجه غيب الجسـد بأحجبتـه الكثيـرة، وخيزرانته.. وكان لها زوج يطمئنه الشيخ بالفرج القريـب.. وشيء ما خاف جسدها جعلها عرضة للقيل، والقال.

للشيخ الآن قشرة الجسد، وللعفريت ما تحت القشرة.

أقسم الشيخ شلتوت ـ بعدما طلقـت ـ فـي حضـرة الأولياء الصالحين، وخصوصا في حضرة الشيخة صـباح: إما هو، أو العفريت!!

تزوجها الشيخ.

تقاوم ألمها بأدعية مخصوصة علّمهـا الشـيخ إياهـا.. سرت شائعة من شيخ ضرير: لن تلد إلا حيوانًا بذيل.

ولدت توءمين.. فرح الناس، واغتم الشيخ، فقد جزم أن الجني شاركه.

أودع معرفته وغمه لامرأته، قبـل أن يـودع روحـه للأرض التي جاء منها: هذا يرضع الثدي الأيسر دائما، وهذا يرضع الثدي الأيمن دائما، ولا تخلطي بين الاثنين أبدا.

* * *

كان يتخطى جسدها المتهالـك، المرمـي، والمنسـي، والمثقوب بفعل حكايته مع زمنه، ويمضي صـاعدا لطابقـه الأعلى.

جسد متهالك بيننا، وأنا وأنت طابقان.. أنت في الطابق العلوي، وأنا في الطابق الأرضي.. يمكن لك وأنت تصـعد وتهبط أن ترى بعضا من حيـواتي، ربمـا وأنـت تهمـس بالصباح أو المساء.. وربما تقف علـى عتبتـي متصـنتًا.. ها أنت تراني في الصعود والهبوط، لكنـي لا أسـتطيع أن أتلصص عليك أبدا، حتى لو أردت ذلك حقًا.

لك الهبوط والصعود، ولي فقط ذلك الطابق الأرضي.. لن أراك أبدا إلا مصادفة في هبوطـك أو صـعودك.. وإذا أردت ذلك حقًا علي بالانتظار حتى تمر.

كان في كل مرة، يقف عند عتبتي يمسح حذاءه ـ لماذا كلما يقف عند عتبتي يمسح حـذاءه ـ ويمضـي صـاعدا أو وهابطًا. ويتخطى ذلك الجسد المثقوب.

هذه علاقتي بك، أو بالأحرى حقيقتـي معـك، أو قـل ما تشاء، لكنك ـ فقط ـ لا بد وأبدا أن تنظرني.

آخـــر الشـــوف

رجل معصوب العينين يقود امرأة معصـوبة العينـين أيضا خلفه، يتعكز على عصا، وهي تتمسـك بذيلـه، وهـو يرتدي لحمه البائن.

"تقع في حفرة، في ترعة. تصطدم بقطار سكة حديـد، أو بجاموسة، أو يفترسنا ذئب".

هكذا كان يثرثر معصوب العين.

"كل الذي يجيبه الله جميل".

وهكذا كانت تثرثر معصوبة العينين، وتجيب.

أزاح عصابته ـ باليد التي تمسـك العصـا ـ قلـيلاً، فعرف الطريق. يتفادى الجاموس والسكة الحديدية والتـرع والحفر، وطاف حول المقابر كثيرا "لا يغرنك سكوتها" هكذا قال، وقد مال بوجهه إليها، وكانت مقبرة خاويـة.. مفتوحـة

وجديدة، فأدخلها، وسد عليها المقبرة، وعاد وهو يرى بعينين ـ آخر الشوف ـ عصابة العين التي كان يرتديها مضطرا.

نشرت بمجلة أدب ونقد

العدد ١٣١ يوليو ١٩٩٦.

دعـــاء

معروق ذلك الجسد الموزع على أرفف الدكان، مخلوع بابه، ولا أثر لباب كان هنا. الدكان بشارع عمومي، كقنديلين في مقدمة الرف الأوسط تدلى ثديان، ومن ثم، كـان تحـت الثديين أياد مرفوعة، مسافة طويلة وزمن بين الثديين وتلـك الأيدي. ينز الثديان بشيء يشبه الماء أو اللبن، فتلقفه الأفواه فرحة. بعض الوجوه قد انكست بما يشبه المـاء أو اللـبن. الوحيد الذي قبض قبضة من الثدي ومضى، ذلك الولد الـذي كان يتكئ على عصا، تطول أحيانًا، وتقصـر أحيانًـا وقـد شاهدته مرارا يجوس بـين الأرفـف يتحسـس بضـاعته. ارتعشت الأيادي المروعة حين كبش الولد الثدي، ومن ثـم، حبس الثدي ما ينزه (آه) قام على أثرها ذلك الجسد بالزوج. وجه الجسد يظهر حينًا، ويختفي حينًا، ونظر الزوج إلى ذلك الجسد المعروق الموزع على أرفف الدكان، ثم جلس جلسـة الرجال.. الرافعي الأيدي، ورفع يديه بالدعاء.

رائحة

دورتان متقابلتان.. واحدة تخـص الحـريم، وأخـرى للرجال.

يطأطئ رأسه لبرهـة أمـام دورة الميـاه الحريمـي، ويستعطفهن لكشف أجل أسرارهن أمـام عينيـه، نظراتـه موشومة بنوبة صرع.

واحد فقط هو الذي يعرف سره، فيعطيه مسكّنًا، ويلـف جسده المرتعش بورق.. لقد كان يرتق جسمه النحيـل بهـذه الصور التي يشاهدها في الخفاء.. في الورق، أو الفيديو.

المرأة الواقفة، والحارسة لدورة المياه الحريمي تنظـره مليا لما يمر، وتداعبه من بعيد خشية أن تنتابه النوبة. وكانت تهشه بعنف حينما يحاول الاقتراب.

حاول أن يرشو حارسة الدورة مرات عديـدة، لكنهـا أقنعته بأن ذلك سيجلب عليه المتاعب والصياح.

فاجأته الحيلة ـ أخيرا ـ بعد رواح الحارسـة، وبعـد انتهاء مواعيد العمل الرسمية، وانتظر حتى خلت الطرقة من السائرين، ثم انقض بسرعة البـرق، ودخـل دورة الميـاه الحريمي، وظل يستنشق من تلك الرائحة، ويملأ صدره بها.

الفتـــاة والفـــــرس

جرس للحمار يعلن عن سيره أو توقفه، ويجتمع النـاس على صاحبه يحيونه. واحد راكب حمـارا أعـرج يغنـي، فينتشي هو وحماره. لمح على البعد جميلة من بنات حـواء، مرتدية الأبيض، وطرحتها علـى رأسـها أيضـا بيضـاء. تتخضب بالحناء بيديها ورجليها. خلفها طابور طويـل يـود اللحاق بها. تردد في سيره. حتى أوقـف الحمـار، فتعلقـت برقبة الحمار، وقالت:

- ها أنا لك يا فارس هذا الزمن، أسـرع، واحملنـي بعيدا.. بعيدا.

قال:

- حماري أعرج. يحملني قليلا، وأحمله كثيرا.

قالت:

- يجب أن أكون معك، والحمار الأعرج سيبعدنا عنهم قليلاً، ثم ندبر أمرنا.

قال في نفسه بعد أن رآها جميلة، وقد اسـتقرت بـين ضلوعه "يا فارس الزمن الماضي قف، وانهض من قبـرك، وحملها بين ذراعيه، وأسر لحماره بكلمات قليلة، تحول بعدها الحمار إلى فرس، وقبل أن يمضي، كانت حواجز كثيرة قـد زينت المكان في لمح البصر. وتسوروا حوله طـالبين منـه التخلي عن الفتاة والفرس.

طريـــق

رمى نصف النهار على طاولـة البوظـة. سـمع آذان الظهر، فقام يتوضأ بنصف النهار الباقي، ووقعت منه قروش قليلة، لمها فرحا عم خريستو، ودسها بجيبه، مخلوطة بصوت صاحب البيت الذي تدلى لسانه الآن، الواقـف علـى بدايـة نصف النهار الباقي وعلى عتبة الغرفة.

- إلى أين أذهب أنا وصاحبي الآن؟!

رمى صاحب البيت على عتبة الغرفة نصـف النهـار الباقي وكل ما كان بالغرفة، وكانت التي سـتتزوجه تمسـح أرض الغرفة بالفينيك وتدعك بقع الذكرى بجلبابها.

- لا أستطيع حمل هذه الأشياء وحدي!!

لطم صاحبي، حين رأى ما كنا نستره بغرفتنا تحت قدم صاحب البيت. وسب أباه ويوم رؤيته، قال صاحب البيت.

- الإيجار يا أولاد الأفاعي.

واقتطع من أشيائنا رهنًا.

وضعنا ما بقي من أشيائنا على عربة "كارو" وسـرنا. نحبس كلامنا كما حبس صاحبي أشياءنا وغطاها بتلك الملاءة القديمة. تخرج من قلب عم خريستو تكريعات البوظة، وقـد جذب صاحبي إلى قلبه، قال عم خريستو.

- على فين العزم؟!

- أرض الله واسعة.

من قلب عم خريستو نعب أنا وصاحبي البوظة. بعـدما أسكره حليب عم خريستو. أعلن صاحبي على الملاءة.

- هذا فراق بينـي وبينـك. أشـياؤنا الآن مخلوطـة وموجودة فوق العربة كنت أقاسمك الغرفة، فلنقتسـم الأشياء الآن، سأترك لك العربة.

* * *

- يمكن أن تجر العربة أنت. لا سبيل أمامك إلا ذلـك، ادفع.

يدفع العربة الآن برفق، لا شيء يشـغله غيـر دفـع عربته، ويدفعه الغناء على السير مـتمهلاً، علـى فتـرات

متباعدة، يقف تحت ظل شـجرة مـا، يقلّـب تلـك الكتـب الصفراء، ثم يغمض عينيه، ويضع رأسه على الأرض، وينام قليلاً، كان الطريق الذي يسير فيه مستويا كأسنانه، مرصوفًا بتلك القدرة العجيبة التي ينهل منها ذلك الشخص الذي يغني. اندفعت العربة تهبط إلى مستقر لها، وقد التصقت يداه بمقود العربة، وانقطعت أغنيته، وكـان محمـولاً علـى الجـري وراءها، نزع يديه المصمغتين بمقود العربة بصـعوبة، لمـا نظر على البعد حفرة، وقد جزم أنه هالك، لا شـيء يوقـف العربة، أغمض عينيه، ولسانه ويداه تنزلاف بالدعاء.

لما لم يسمع احتكاك العجلات بالأرض، فـتح عينيـه، ووقف على حافة الحفرة. وانتظر انسدادها، أو انطباق حافتها بالتدريج. في حين أنه يمكنه عبورها قفـزا الآن، أو بإقامـة جسر عليها، وكان الليل قد هبط، نام على حافة الحفرة.

* * *

استفاق على هزة خفيفة، فنفض عن جفنه النعاس، رأى شخصا عاريا.

- استر جسدك

وبحث له عن هدمة، وكان صاحب الجسد العاري يمزق أوراق الكتب الصفراء، ويلصقها بجسده.

* * *

صباحا، لم يجد أي أثر لحفرة، فلصـق يديـه بمقـود العربة، وسار.

اختلاف بسيط

برفق، وضع يديه على صدري مبكرا، فمسـح عنـي غلالة الليل، وسمعتُ الديوك تبتهل بالدعاء القـديم، وانفـتح قلبي يسمع ترنيمة البدايات، بعدما غرقت الديوك في نقرهـا المستمر، لتنفتح عين أخرى للنهار.

الديوك تعلن صيحات الحقيقة الأبدية كل يوم.

زينت وجهي وهندامي، فقد كان هـو الآخـر مزهـوا بنفسه. لم أر ابتسامته هذه منذ فترة. كثيرا ما سألته عن حياد تقاطيع وجهه، فكان يشهق، فتشهق روحي معـه، وأصـمت لجلال الحزن البائن في عينيه.

تأبطني هذه المرة، وخرجنا سويا مزهوين بمـا لـدينا، وكنت قد قبلت زوجتي على جبينها، ولم أفلح في أكثر مـن هذا. كان يمكن أن أتركها وأمضي.. لكني وجدته يوشوشـها بغنج. وأنفاسه قريبة تلسعني في قلبـي، وتحفزنـي لإثبـات

رجولتي، فرحتي طوت كل فعل سوء أو سوء ظـن، فقلبـي أبيض اليوم، ولعلها تريد منه شيئًا عصيا لا تسـتطيع طلبـه مباشرة مني، تحرضه، ليضعني في (خانة اليك) فهو عزيـز على قلبي، وأثق فيه على كل حال.

أوصلني إلى عمي، هذه هي المرة الأولى. لوح لي لما دخلت، ولوحت له بشدة لما بعد. قابلني أحمد شـرف بلهفـة وأمسك معصمي بعنف.

- تأخرت كثيرا.

ما زلت ألوح له بشدة، وهو يبعد أكثر. أوجـع أحمـد معصمي من كثرة القرص، فأنزلت يدي غصبا، فالعميد على بعد خطوات قليلة ينتظرني. الوحيد الذي ينتظره دائما.

- آسف.. أسف لتأخري. المسافة من البيت إلـى هنـا كانت طويلة اليوم.

أقدر الآن ـ والآن فقط ـ أن أتحمل رذائل الجنرالات والمجانين.

سب أبي وأمي ولعن يوم رؤيته لي. لن أتخلـى عـن صفاتي هذه اللحظة.

تخليت بأحمد شرف، وأخرجـت لـه شـريط لسـاني الطويل، وقرأ كل حروفه.

- كان يوشوش زوجتي.. تصور.

فعانقني أحمد، وأحسست بسعة صدره ودفئه.

اليوم هو أول الشهر، استلمت مرتبـي علـى عجـل، وانزلقت أغني مدركًا رغم ذلك خشونة صوتي.

شيء غير عادي. لمة. لا بد من إزاحة هذا الحشد قليلاً لمعرفة الخبر. جسد يغطيه دم. ركعت أمسح وجه الجسـد، والواقفون يحذرونني. الاقتراب منه مصيبة. تبينت ملامحه، هذا الذي أوصلني اليوم إلى عملي، وكان يوشوش زوجتـي. كان أحمد يقف عند رأسي. فمسكت معصمه بعنف.

- لقد تربصوا به يا أحمد.

ودعوته أن يساعدني في إبلاغ الشرطة، فعنـدي مـن الشك ما يقتلني.

- سيدي الضابط. أعرفه جيدا. لقد تربصوا به.

لف الضابط حول الجثة مرات، والتفت زملائي أيضـا، ومن واجبي أن أساعد في مصاريف الجنازة. تبرعت بمرتبي

كاملاً وجاست يد الزملاء في جيوبهم، فصنع أحمد من منديله المحلاوي كيسا. لمحت العميد يدس في الكيس بعض النقود، وقد أفسح زملائي له مكانًا ليعاين الجثة أيضا، لم أعرف أن له قلبا رقيقًا أيضا، هذه أيضا زوجتي. ربما أدركت بحدسها ما أصابه، أو أنها قد جاءت لتطمئن على طلبها الذي طلبتـه عندما وشوشته به أمامي. إنها تبكي. ابك يا زوجتـي. إنـه عزيز علي أيضا. لقد كان سعيدا، وأيقظني من النـوم هـذه المرة بأن همس في أذني بتحنان وتبسم. فتش الضابط عـن أشياء حتى عثـر علـى أوراق كثيـرة. أمسـك بالبطاقـة الشخصية، وقرأ بصعوبة بعدما مسحها من بقع الدم.

- من له صلة بممدوح عبد الستار؟!

الوحيد الذي رفعت يدي، وكنت متعبا جدا، العيون تخلع عني ملابسي، وقد التف حـولي الـزملاء والعميـد. فقـال الضابط:

- من أنت؟!

فأمسكت بحافظتي منعا للإحراج، وصوبتها أمام عينيه، ولم أقو على إخراج بطاقتي الشخصـية، فـأخرج الضـابط صورة من بطاقتي الشخصية، وكان مكتوبا فيهـا: ممـدوح

عبد الستار.. موظف بوزارة الدفاع، فاعتمد العميد صـورة بطاقتي الشخصية، وكان أحمد شرف يعطي زوجتي كـيس النقود.

بداية

ركنتَ في ظُلَلٍ ببطن الحوتِ
مكتفيا بأنك هائم في البحرِ
لجي هو الإبحار
لا تَركَن لظلٍ
فاختفاؤك في الظلال وخاف صمتك
لن يرطب من جفافك
لن يهدم صومعات الحزن فيك.

- **التوطئة من قصيدة: ريح**
- **والبداية من قصيدة: اختفاؤك في الظلال للشاعر ماهر نصر.**